نبيل فاروق

أنت جيش عدوك

حروب الجيل الرابع





نبيل فاروق

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-١٤-٥٣٣٦-٩
رقم الإيداع: ٢٠١٥/٢٢٣٨٠

طبعة يناير ٢٠١٦



٢١ شارع أحمد عرابي – المهندسين – الجيزة
تليفون: ٣٣٤٦٦٤٣٤ – ٣٣٤٧٢٨٦٤ ٠٢
فاكس: ٣٣٤٦٢٥٧٦ ٠٢
خدمة العملاء: ١٦٧٦٦
Website: www.nahdetmisr.com
E- mail: publishing@nahdetmisr.com

مقدمة

اقرأ هذه الدراسة جيداً ... وراجع كل ما تقرؤه من أي مصدر تشاء ... والمهم أن تدرك في النهاية أنك بالفعل في ساحة حرب ... أشرس وأعنف وأقوى الحروب ... هذا لأن ساحة هذه الحرب هي تلك التي تمثّل مصدر قوتك الأساسي ... عقلك.

ا

للحـــروب تاريــــخ...

حروب الجيل الرابع... أو الجيل الرابع للحروب... مصطلح كثر استخدامه في الآونة الأخيرة، وردده الكثيرون ترديداً أعمى، على الرغم من جهل الكثيرىن بالمصطلح، وما ينطوي خلفه من خطة شيطانية، تستهدف تحقيق نتائج الحروب التقليدية، بأقل قدر من الخسائر، أو بانعدام خسائر الطرف الأساسي، لو أمكن هذا...

والحروب جزء من تاريخ العالم، منذ صارت هناك قبائل تتصارع على الأرض والموارد، أو حتى الغنائم... فكل قبيلة كانت

تسعى للاستيطان بالقرب من أماكن الصيد والمياه والرعي... أو حتى الزراعة، ولما كانت تلك الموارد غير متوافرة في كل مناطق العالم، كانت القبائل التي تفتقر إليها، تسعى للاستيلاء على ما لدى القبائل الأخرى من موارد، يستمتع بها سكانها والمنتمون إليها، وتسعى في الوقت ذاته لمنع الآخرين من مشاركتها مواردها، والاستمتاع بها...

ومن هنا كانت الحروب...

إنسان ما قبل التاريخ بدأ حضارته بصناعة أسلحة الصيد والقنص، بحثًا عن الغذاء في البداية، ثم سرعان ما استخدم الأسلحة نفسها لحماية مجموعته، وصد أية محاولة للهجوم عليها... وفي مرحلة تالية، قام بتطوير أسلحة الصيد والقنص إلى أسلحة قتالية، يصد بها عدوه، ويغير

بها عليه؛ للاستيلاء على مزيد من الموارد...

ونشأ الجيل الأوَّل للحروب، وهو ذلك الجيل الذي يعتمد على الإغارات والهجوم الخاطف، من طرف على آخر، عبر أسلحة بُدائية، وتلاحم مباشر بين طرفي الحرب التي تعتمد على قوة وعضلات ومهارة الفرد المقاتل، وقدرته على الالتحام مع عدوه... وعبر القرون تطوَّرت الحرب التلاحمية، مع تطوُّر الحضارة وأسلحة القتال، حتى صارت حربًا بين جيشين نظاميين، في ساحة معركة واضحة، وبأهداف معروفة للطرفين، والجيشان يمثلان دولتين، في صراع قوة وسلطة، من أجل الأرض والموارد أيضًا، ولكن عبر نظم واضحة، بها قيادات وفرق وجيوش ومقاتلون محترفون متخصصون، ولقد سمي هذا النوع من الحروب التلاحمية،

باسم «الحرب التقليدية» أو «**Conventional War**»، وتمت تسميتها، فيما بعد على يد الكاتب الأمريكي «ويليام ليند»، «الجيل الأوّل للحروب» أو «**IGW**»...

وتطوّرت الأسلحة ووسائل القتال أيضًا، وفي أمريكا اللاتينية، دارت حرب عصابات عنيفة، أطلق عليها «ويليام ليند» أيضًا اسم «**War Guerrilla**» وهي حرب شبيهة بحروب الجيل الأوّل التقليدية، ولكن مع استخدام النيران والدبابات والطائرات بين العصابات والأطراف المتنازعة... صارت تسمية هذا النوع من الحروب بحرب الجيل الثاني، أو «**٢GW**»...

والانتقال من جيل إلى آخر في الحروب لا يتم بقفزة واحدة، ولذلك فكل جيل من الحروب يحمل في بداياته وثناياه لمحات من الجيل السابق، وربما يحمل في نهايته مبادئ الجيل التالي من الحروب... وهكذا....

الحرب العالمية الثانية مثلًا، حملت كل جيل من الحروب، عُرِفَ حتى تلك الفترة، فقد كانت هناك حروب تصادمية، بين جيوش نظامية، وضربات طيران ومدفعية، وحروب عصابات في أحراش أسيا، أو أنفاق باريس، ولكنها انحسمت تجاه ألمانيا النازية بحرب تصادمية مباشرة، زحف خلالها الجيش الروسي حتى بلغ برلين من الجانب الشرقي، وهبط خلالها الحلفاء على شواطئ نورماندي، وحرروا فرنسا، ثم واصلوا زحفهم حتى برلين من الجانب الشرقي، ثم استخدمت أمريكا أقصى تطرُّف حرب الجيل الثاني، بضرب هيروشيما وناجازاكي بقنبلتين ذريتين؛ يرى المحللون العسكريون المحايدون الآن أنه لم يكن هناك ما يبررهما سوى إظهار قوة أمريكا الجديدة، واختبار القنبلتين اللتين عرفتا باسم «الولد الصغير» **Little**

«Boy» و «Fat Man»، ودراسة تأثيراتهما كسلاح جبار...

فالواقع أنه بعد هزيمة ألمانيا النازية وسقوطها، لم يعد هناك أمل كبير لليابان، وخاصة بعد هزيمة أسطولها في معركة ميداوي التي ظهر فيها الكاميكاز الياباني أو الانتحاريون اليابانيون لأوّل مرة، وهم ينقضون بطائراتهم على البوارج البريطانية والأمريكية، كمحاولة أخيرة لتفادي الهزيمة...

ولكن أمريكا كانت قد صنعت قنبلتين ذريتين بالفعل؛ تعتمد إحداهما على الانشطار الذري، والأخرى على الاندماج الذري، ولقد فوجئ هاري ترومان – الرئيس الثالث والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية – بطلب جنرالاته إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما، ورأى كما يرى المحللون الآن أنه ليس هناك داع لهذه المجزرة، فاليابان

تخسر بالفعل، وتفر من المناطق التي احتلتها في آسيا، وهزيمتها صارت مسألة وقت فحسب، وقد كانت القنبلة قد اكتملت في عهد سلفه الرئيس فرانكلين روزفلت الذي مات في بداية ولايته الرابعة قبل حسم نتائج الحرب، ولكن الجنرالات أصرّوا بشدة، باعتبار أنه لا قيمة لامتلاك سلاح جبار، دون أن يدرك العالم قوته ويرى تأثيراته المدمرة...

ووافق ترومان مكرهًا، وهو يقول لمن حوله إنه سيصنف بهذا كأكبر سفاح عرفه التاريخ...

وفي السادس من أغسطس ١٩٤٥م، حلّقت قاذفة القنابل «بي – ٢٩» المسماة «أينولاجاي»، يقودها الكولونيل «بول تيبيست» من السرب ٣٩٣، فوق هيروشيما اليابانية، وألقى القنبلة الذرية «**Little Boy**»...

وفوجئ اليابانيون بواحدة من أكبر مدنهم تزول من الوجود بضربة واحدة، ولم يمكنهم استيعاب ما حدث، في نفس الوقت الذي فوجئ فيه ترومان بجنرالاته يطلبون موافقته على إلقاء القنبلة الثانية «Fat Man»، على مدينة ناجازاكي، المساوية لهيروشيما في المساحة وعدد السكان...

ورفض الرجل بشدة، ولكن جنرالاته التفوا حوله كالمعتاد، ونجحوا في إقناعه بأن إلقاء القنبلة الثانية ضرورة عسكرية بحتة؛ لاختبار الفارق في القوة التدميرية، بين الانشطار النووي والاندماج النووي؛ لأن هذا ما سيعتمد عليه إنتاج الأسلحة النووية في المستقبل...

ووافق ترومان، وألقيت القنبلة الثانية على ناجازاكي، في التاسع من أغسطس، من العام نفسه....

قتل من جراء هذا مائة وعشرون ألفًا من البشر؛ الغالبية العظمى منهم من المدنيين، فور الانفجارين النوويين، ومات ضعفا هذا العدد في السنوات التالية من جراء التسمم الإشعاعي...

ووضعت الولايات المتحدة الأمريكية بهذا ختامًا للجيل الثاني من الحروب، بأبشع وسيلة ممكنة...

وبعد إعلان قيام دولة إسرائيل، في ١٤ مايو ١٩٤٨م، تبنى جنرالات إسرائيل نظرية الحرب الوقائية أو الاستباقية التي طوَّرها الألمان في الحرب العالمية الثانية تحت اسم «**Preventive War**»، وهي أشبه بحرب عصابات متطوِّرة، تعتمد على حرب المناورات، وتتميز بالمرونة والسرعة في الحركة، واستخدام عنصر المفاجأة بأقصى درجاته، وتوجيه الضربات خلف خطوط العدو، بحيث تبقى أرض المحارب بعيدة

عن الضربات والإصابات، ويقتصر التدمير على أرض العدو فحسب... ولدينا مثال واضح على هذا في حرب ١٩٦٧م، والتي وصفتها إسرائيل بأنها حرب وقائية، نظراً لأن تهديدات جمال عبد الناصر، وسحبه لقوات السلام الدولية من سيناء – كانت توحي كلها بأنه يستعد لضرب إسرائيل...

تلك الحرب الاستباقية أو الوقائية، هي ما تمت تسميته بالجيل الثالث للحروب، أو «**٣GW**»..

أما الجيل الرابع للحروب، فهو ابتكار أمريكي صرف، وُجد ليخدم المصالح الأمريكية في أي مكان في العالم، و... لهذا حديث آخر.

* * *

٢

الضــربة....

في تمام الثامنة وست وأربعين دقيقة من صباح الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م، اصطدمت طائرة مدنية تجارية بالبرج الشمالي، من برجي مركز التجارة العالمي، في قلب مانهاتن بنيويورك... وبعدها بدقائق وفي التاسعة وثلاث دقائق بالتحديد، اصطدمت طائرة مدنية تجارية أخرى بالبرج الجنوبي، واشتعلت النيران في البرجين، وعاشت أمريكا كلها صدمة عنيفة لم تعش مثلها منذ الهجوم على بيرل هاربور في السابع من ديسمبر عام ١٩٤١م...

الصدمة أصابت الشعب الأمريكي كله، والذي تصوّر أنه يتعرّض لهجوم جوي لأوّل مرة في تاريخه، وصُدِمَتْ الحكومة الأمريكية التي تصوّرت أنها، بموقعها المتفرد، بمنأى عن أي هجوم مباشر على مدنها وشعبها...

وبعد نصف الساعة تقريبًا، ضربت طائرة مدنية تجارية ثالثة مبنى وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاجون»؛ ليقر في عقول الكل أنها الحرب...

كانت هناك طائرة رابعة، وهي رحلة يونايتد ٩٣، ولكنها سقطت لسبب ما قبل أن تصل إلى وجهتها التي لم يعلم أحد حتى الآن ماذا كانت بالضبط!!..

الأمر لم يكن صدمة فحسب، ولكنه كان واقعة تاريخية غيّرت مسار الحروب إلى الأبد، وصنعت ما نعرفه اليوم باسم «حروب الجيل الرابع»، أو «**٤GW**»...

بسرعة، وحتى قبل أن يفيق الشعب الأمريكي من الصدمة، كانت الإدارة الأمريكية توجّه الاتهام إلى تنظيم القاعدة والعراق، وتعلن الحرب على الإرهاب الذي اتخذ لديها صورة أفغانستان، حيث تنظيم القاعدة، والعراق حيث نظام صدام حسين المعادي للإدارة الأمريكية منذ بداية تسعينيات القرن العشرين...

وبعد أقل من أربع وعشرين ساعة على الأحداث، أعلن حلف شمال الأطلنطي أن أية هجمة على دولة من دول الحلف، هي هجمة على كافة الدول التسع عشرة الأعضاء، ومن هول العملية اتفق الحزبان الأكبران في أمريكا، الجمهوري والديمقراطي، وربما لأوّل مرة، ودقت طبول الحرب...

وفي السابع من أكتوبر، عام ٢٠٠١م، ضربت القوات الأمريكية قوات طالبان في

أفغانستان، وسرعان ما أسقطت نظامهم وحوّلتهم من حكام شرعيين إلى مطاريد جبل...

وفي ٢٠ مارس ٢٠٠٣م، وتحت حجة وجود أسلحة دمار شامل، لم يثبت وجودها قط –وأكّد مدير المخابرات الأمريكية السابق جورج تنيت أنه لم تكن لديه أية معلومات بشأنها– غزت الولايات المتحدة الأمريكية العراق، وأسقطت نظام صدام حسين؛ مبرِّرة ذلك بأنه جزء من حربها على الإرهاب!!...

والواقع أن حرب الإرهاب هي ما يطلق عليه اسم الجيل الرابع للحروب التي يتفق كل الخبراء والمحللين العسكريين على أنها حرب وصناعة أمريكية صرفة، طوّرها الجيش الأمريكي، وأطلق عليها اسم «الحرب اللامتماثلة» أو **Asymmetric» Warfare**»، حيث وُجِّهَ الجيش الأمريكي إلى

أنه –وبعد ضربات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م– يخوض حربًا ضد لا دولة؛ أي أنه يحارب تنظيمات منتشرة حول العالم، وهي تنظيمات محترفة لديها إمكانات ليست بالقليلة، وخلايا خفية نشطة، تعمل على ضرب المصالح الحيوية للدول، كالمرافق الاقتصادية، وخطوط المواصلات، والبنية الرئيسية، وذلك لمنع الدول من التدخل في نطاق نفوذها، ومثال على هذا: تنظيم القاعدة وحزب اللّه وغيرهما...

في البداية، أطلقوا عليها اسم «الحرب الجديدة» «**New War**»، وأول من أطلق هذا التعريف –في محاضرة علنية– هو البروفيسير الأمريكي «ماكس مايوراينك»، خلال محاضرته في معهد الأمن القومي الإسرائيلي، وعرّف تلك الحرب الجديدة بعبارة موجزة؛ ألا وهي «حرب بالإكراه، وإفشال للدولة، وزعزعة استقرار الدولة، ثم

فرض واقع جديد يراعي المصالح الأمريكية»...

هكذا عرَّف «ماكس مايوراينك» الأمريكي الحرب الجديدة، وهدفها

خلق واقع جديد، يراعي المصالح الأمريكية!!...

وفي سبيل المصالح الأمريكية، لا مانع بالطبع من تدمير دول، وهدم أنظمة، ودعم الإرهاب حتى ولو ذبح الملايين...

المهم المصالح الأمريكية .... وحدها...

ولقد وضع «ماكس مايوراينك» نقاطاً أساسية للحرب الجديدة التي سرعان ما حملت اسم «حرب الجيل الرابع»، أو «٤GW»، وتلك النقاط هي...

١ – دعم الإرهاب...

٢ – خلق قاعدة إرهابية غير وطنية، أو متعددة الجنسيات.

٣ – حرب نفسية متطوِّرة للغاية من خلال الإعلام والتلاعب النفسي.

٤ – استخدام كل وسائل الضغوط العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية

٥ – استخدام تكتيكات حروب العصابات والتمرُّد..

ولو أنك راجعت النقاط السابق ذكرها، فستجد أنها مستخدمة على أرضنا بالفعل، في كل بند منها، مما يؤكِّد الهدف من تلك الحرب الرابعة؛ ألا وهو بث الفوضى وروح الفرقة في الدولة، كبداية لإسقاطها...

يتبين من هذا أن الحرب الفعلية ليست حربنا مع الإرهاب، ولكن الإرهاب هو أحد أسلحة الجيل الرابع للحروب فحسب، أما المحارب الفعلي فهو الإدارات الأمريكية المتعاقبة التي ترى أن نمو العالم العربي

قد يخلق كيانًا قويّا جديدًا يهدّد المصالح الأمريكية على المدى البعيد؛ لذا فهي تحارب كل الأنظمة العربية في آن واحد؛ إما لهدم تلك الأنظمة، واستخدام المعارضة للعمل على تقسيم الدول إلى دويلات صغيرة متطاحنة تنشغل بحروب داخلية، تستنزف مواردها وتعوق نموها وتدمّر شبابها وقوتها، وإما هدم تلك الأنظمة وإنشاء أنظمة بديلة تكون تابعة تبعية مطلقة للمصالح الأمريكية!!...

كل هذا دون أن يدخل في المعادلة جندي أمريكي واحد، أو تنطلق رصاصة واحدة من مصدر أمريكي، اللهم إلا من الأسلحة الأمريكية التي يتم تمويل الإرهاب بها ليشن حربه علينا...

أما السلاح الأقوى في حرب الجيل الرابع، فهو سلاح الحرب النفسية من خلال الإعلام، ومواقع التواصل الاجتماعي التي

تستخدم فيها كل فنون الشائعات التي ابتكرها جوزيف جوبلز، وزير البروبجاندا النازي، في زمن هتلر، والتي طوّرها الإعلام الصهيوني بالعقول الأمريكية التي لا تبالي سوى بالمصالح الأمريكية وحدها...

جوزيف جوبلز أدرك قيمة الحرب النفسية، أثناء صعود أدولف هتلر للسلطة، وأجاد استخدام فن الدعاية والشائعات الإيجابية التي صنعت من هتلر أسطورة في عيون الشعب الألماني، وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، جنّد فنه كله للتأثير على معنويات جيوش الحلفاء وشعوبهم حتى إنه ابتكر فكرة الإذاعات الموجّهة بلغة الحلفاء، وتلك التي تتظاهر بأنها مناهضة للنازية، ثم تبث السم في العسل فيما تقدّمه من أخبار كاذبة تحمل لمحة لا تتجاوز واحداً في المائة من الحقيقة، وابتكر فكرة إلقاء المنشورات على جنود

الحلفاء، وعلى المدن الرئيسية لهم، والتي توحي بأن كل البيانات الرسمية كاذبة، والجيوش تعاني هزائم ساحقة، على الرغم مما تعلنه من انتصارات...

ثم تطوّرت الحرب النفسية مع تطوّر العلوم ووسائل الاتصال، ومع ظهور دراسات نفسية سيكولوجية جديدة، تدرك جيداً كيف تستغل الأهداف النبيلة «ظاهرياً» في تحقيق نتائج مدمرة فعلياً، وظهرت دراسات التأثيرات غير الإدراكية، والتي يطلق عليها اسم «**Subliminal Effect**»، والذي يتسلّل إليك حتى دون أن تدرك أنك واقع تحت تأثيره...

وعلى الرغم من التطوّر في الحرب النفسية، فقواعدها الأساسية مازالت ثابتة، وتعتمد على الأسس نفسها، مع اختلاف الوسائل... وفي هذا لنا حديث ممتد.

* * *



حرب العقول...

الشائعات... أقوى سلاح في حرب الجيل الرابع... باعتبار أن الشعوب تحرِّكها مشاعرها بأكثر مما تحرِّكها عقولها... هذا لأن الانفعال– حتى لو كان حماساً– يطلق الكثير من الأدرينالين في العروق، وتتغذى به الخلايا والأنسجة، ومن مميزاته أنه يضاعف من قدرات الإنسان ونشاطه الجسدي، ولكن من عيوبه أنه يفقد العقل القدرة على التروي وحسن القرار، أو الحكمة في اتخاذه...

ثم إن هناك قاعدة أساسية بني عليها فن الشائعات كله؛ ألا وهي أن الإنسان

بطبعه يميل إلى تصديق الكذب لو صادف هواه، وتكذيب الصدق لو خالف هواه... بمعنى أنك إن كنت تكره الشرطة مثلًا، فأنت أكثر ميلًا لتصديق أي كذبة تؤيّد كراهيتك للشرطة، وترفض تصديق أي حقيقة تتعارض وكراهيتك للشرطة، والعكس بالعكس...

والشائعات لا يتم إطلاقها عشوائيًّا، ولكنها تبنى على دراسة نفسية دقيقة، وخاصة لو أنها تستهدف أمرًا جللًا، مثل إسقاط دولة كاملة، ولهذا؛ فالشائعة المدروسة لا تبدأ بكذبة، ولكن تبدأ بذرة من الحقيقة التي يسهل التأكُّد منها، ثم يبنى عليها جبلٌ من الأكاذيب، تستند كلها إلى ذرة الحقيقة...

فلو افترضنا مثلًا أنك كنت تسير في الطريق، والتقيت سائلًا، فبحثت في جيوبك، ولم تجد فئات نقدية مناسبة،

فانصرفت دون أن تمنحه شيئًا، فلو التقط خصم لك هذه الواقعة، فإنه يمكنه أن يبني عليها شائعة تقول: إنك تكره السائلين، وترفض منحهم أي شيء، وسيعطي موقفك دليلًا على هذا!

الشائعة الذكية إذن تستند إلى ذرة من الحقيقة، تبنى عليها أهرامات من الأكاذيب، وتستخدم تلك الذرة، كوسيلة لمنح الأكاذيب سمة الحقيقة...

وفي بعض الأحيان، لا تستند الشائعة إلى تلك الذرة من الحقيقة فحَسْب، ولكنها تُبْنَى كلها على استعداد المستمع لتصديق الشائعة؛ حتى وإن خالفت المنطق السليم...

وفي بداية تسعينيات القرن العشرين، أطلق أحد الخبثاء شائعة تقول: إن الفنان محمد صبحي مسيحي، وبقدر ما كانت الشائعة بعيدة كل البعد عن المنطق

الفطري السليم، فقد ردّدها الناس، وبرّروها بأن أمه لم يكن يحيا لها أبناء، فنصحها أحدهم بأن تطلق على مولودها اسم محمد حتى يحيا!!!

كان من الواضح أن أحدهم كشخص أو جهة، أو حتى جهاز استخبارات معادٍ، يختبر قدرة الشائعة على الانتشار بين الناس في مصر، حتى وإن كانت منافية للعقل والمنطق، أو حتى الفطرة السليمة....

ولاشك في أن الجهة التي اختبرت هذا، أيّاً كانت، قد أدركت من يومها قوة تأثير الشائعات على الساحة المصرية والرأي العام المصري...

والشائعات علم حديث نسبيّاً، ويعد من أسس علم النفس الحديث، وفيه يتم تقسيم الشائعات إلى قسمين كبيرين،

وَفْقًا للهدف الأسمى منها.. شائعات استراتيجية، وشائعات تكتيكية...

الشائعات الاستراتيجية: هي شائعات تستهدف التأثير في المجتمع كله، وتكوين فكر جمعي، يتجه كله نحو الهدف المنشود من نشر الشائعات ومحاولة التأثير على الرأي العام على نحو إجمالي، قادر على التأثير على صاحب القرار، أو دفع المجتمع إلى معاداته، واتخاذ موقف معارض له...

أما الشائعات التكتيكية: فهي شائعات تستهدف تحقيق هدف مباشر، يرتبط بالظروف التي نشأت فيها الشائعة، وأطلقت من أجلها، وهو في المعتاد هدف سريع يحتاج إلى نتيجة سريعة...

وهناك تقسيم علمي آخر للشائعات يعتمد على الجهة التي أطلقتها، ومن هذا المنطلق، يتم تقسيمها إلى شائعات

بيضاء وشائعات سوداء، وشائعات رمادية...

الشائعات البيضاء: هي التي تأتي من مصدر معروف واضح وصريح، مثل الشائعات التي يطلقها العدو، أو يبثها عبر وسائل بثه المعروفة؛ مثل الشائعات التي تطلقها جماعة الإخوان الآن في محاولة لهدم كل إنجاز، أو تسفيه وتعظيم كل خطأ؛ في محاولة لقلب الرأي العام، ودفعه لرفض النظام الحالي....

أما الشائعات السوداء، فهي شائعات تبدو وكأنها صادرة من مصدر يخالف المصدر الفعلي الذي انطلقت منه؛ كأن تتظاهر جريدة مثلًا بأنها موالية للنظام، ثم تطلق شائعات مناهضة للنظام، مدعية أنها تنقلها عن مصادر أخرى... ومثل أية إذاعة يبثها العدو بلغة بلد آخر، لتبدو وكأنها إحدى إذاعات الطرف الآخر،

بحيث تبث شائعاتها وكأنها أخبار صادرة من الطرف العكسي...

أما الشائعات الرمادية، فهي شائعات مجهولة المصدر، يصعب تحديد الجهة التي أطلقتها، وخاصة لو تم ترديدها على نطاق واسع، وأشهر مثال على هذا تلك الشائعات التي يتم تداولها عبر وسائل التواصل الاجتماعي، بسرعة انتشار كبيرة تجعل من العسير تحديد مصدرها...

وتقسيم الشائعات لا يقتصرعلى هذا فحسب، فهناك تقسيم آخر يعتمد على التأثير الذي تحدثه الشائعة في المجتمعات التي تطلق فيها...

ومن هذا المنطلق لدينا ثلاثة أنواع من الشائعات.... الشائعة الزاحفة، والشائعة الغائصة، والشائعة المتفجِّرة...

الشائعة الزاحفة، هي شائعة استراتيجية في المقام الأوَّل، تنطلق من نقطة، ثم

تزحف وتنتشر في المجتمع، معتمدة على الترديد الطبيعي لها، وَفْقًا للمتوالية الهندسية للانتشار، والتي تضاعف أعداد من يردِّدون الشائعة، مع كل مرة يتم ترديدها فيها، حتى تزحف إلى المجتمع كله، وتصبح أشبه بحقيقة تحل محل الحقيقة الفعلية؛ حتى إنك لو ذكرت الحقيقة الفعلية لاتهمك الناس بالكذب أو الخداع بعد أن حلت الشائعة الزاحفة في عقولهم محل الحقيقة من كثرة ترديدها وانتقالها....

والشائعة الزاحفة بطيئة الانتشار، ولكنها قوية التأثير على المدى الطويل؛ ولهذا فهي من أقوى أنواع الشائعات على المستوى الاستراتيجي، ولو أنها أطلقت على نحو علمي صحيح، لأمكنها تغيير الفكر الجمعي للمجتمع، خلال بضعة أعوام، ما لم تتم مقاومتها بحقائق تذاع

في شفافية، تلقى قبولًا وتصديقًا من العامة...

أما الشائعة المتفجّرة، فهي شائعة تكتيكية بحتة، واسمها يدل على تأثيرها وهدفها، فهي شائعة أشبه بالقنبلة، تتفجّر في المجتمع في ظروف خاصة؛ لتحقيق نتيجة سريعة مباشرة، كالشائعات التي تطلق في زمن الحروب؛ لضرب الروح المعنوية للشعب أو للجنود، أو لإثارة الفوضى والتمرد، في لحظة يراد بها إرباك نظام ما، أو تشتيت جهوده بين الداخل والخارج.... كأن تنطلق شائعة مثلًا بأن سعر الخبز سيقفز إلى الضعف، أو سعر الخدمات الرئيسية، أو أنه سيحدث نقص شديد في كمية الوقود، أو ارتفاع شديد في سعر اللتر... وفي كل الأحوال، فالهدف من إطلاقها، واحد، وهوتحقيق

نتيجة سريعة مؤثّرة... ومدمّرة... وهي ككل ما يتفجّر، تضر ولا تنفع...

والشائعة الغائصة، هي شائعة ليست استراتيجية ولا تكتيكية، بل هي شائعة تنطلق في ظروف بعينها، فتسود المجتمع، ما ظلت أسباب إطلاقها سارية، فإذا مازالت تلك الأسباب غاصت الشائعة في المجتمع، ولم يعد يرددّها أحد، حتى تعود الأسباب للظهور، فتبرز الشائعة الغائصة مرة أخرى، وتؤتي ثمارها في كل مرة...

لو أردنا مثالًا على هذا، فهو شائعة ارتفاع سعر الدولار، أو شائعة رفع الدعم، فكلما واجه الاقتصاد أزمة، تصاعدت الشائعة، ومع انتهاء الأزمة، تغوص الشائعة في المجتمع، وتنتظر الأزمة التالية... وهكذا...

ولقد أدركت حروب الجيل الرابع مدى أهمية وقوة وخطورة الشائعات، وبخاصة لو أطلقت عبر وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة، والإعلام الحر... وهذا حديث يطول.

* * *

٤

لعنة الإنترنت....

في عام ١٩٦٩م أطلقت وزارة الدفاع الأمريكية، ما عرف باسم «مشروع أربانت»، وهو مشروع أنشئ أساسًا، من أجل مساعدة الجيش الأمريكي، عبر ربط الحواسيب الآلية، في الجامعات ومؤسسات الأبحاث بعضها ببعض؛ لتحقيق الاستفادة المثلى من كل الحواسيب المتوافرة...

وفي أول يناير ١٩٨٣م استبدلت وزارة الدفاع الأمريكية بهذا البروتوكول، حزمة توافقية، تربط المؤسسة الوطنية للعلوم بكل جامعات أمريكا في حزمة واحدة؛ لتسهيل اتصال طلاب الجامعة بعضهم

ببعض عبر تناقل الرسائل والمعلومات، وأطلق على البروتوكول الجديد اسم الإنترنت...

وبدخول عقول طلاب الجامعات إلى اللعبة، تطوّرت الشبكة، ويساهم الكل بمعلوماته وإضافاته، حتى ظهر أوّل متصفح عرف باسم «موزايك» «**Mozaic**»، ومنظومتي البحث «**Gofer**»، و«**Archy**»....

وعبر جهود طلاب الجامعة، نشأت الشركة العملاقة «نتسكيب» «**Netscape**»، التي سرعان ما تبناها العقل التجاري؛ ليوصلها إلى ما آلت إليه فيما بعد....

وعلى مدار العقود استخدمت شبكة الإنترنت على نحو مطرد؛ حتى إنه في التسعينيات، تم إعلان أن الشبكة قد تزايدت بنسبة مائة في المائة سنويًّا، ثم حدث ما يسمى بالنمو الانفجاري «**Explosive Development**» ما بين عامي ١٩٩٦م

و١٩٩٧م، بسبب الملكية المفتوحة لبروتوكولات الإنترنت، والتي شجعت الأفراد والشركات على تطوير وبيع أنظمة بحث مختلفة، وسرعان ما بدأت شركات الاتصالات في توفير خدمة الإنترنت عبر الهواتف، وهو ما بدأ محدوداً عام ١٩٩٥م...

واليوم، صارت الإنترنت شبكةً عنكبوتيةً هائلةً متاحةً للجميع، ولا أحد يمكنه السيطرة عليها على نحو منفرد...

وكما أدرك الجيش الأمريكي، وأدركت الإدارات الأمريكية أهمية الإنترنت، عام ١٩٦٩م، أدرك مخططو حروب الجيل الرابع فائدتها الشيطانية في تلك الحروب الجديدة، مع بَدْء استخدام وسائل التواصل الاجتماعي التي يتبادل مشتركوها الآراء والأفكار والأخبار... والشائعات أيضًا...

وفي إحصائية حديثة، لعام ٢٠١٣م، ثبت أن شباب العالم العربي هم الأكثر عدداً بين مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي في العالم، وعلى رأسهم مصر وشبابها، وأن أكثر ما يتبادلونه هو الأخبار التي ترد إليهم من مصادر رمادية في معظم الأحيان، ولا يمكنهم هم أنفسهم تحديدها...

والمشكلة أن الكل يسارع بتبادل تلك الأخبار؛ حتى يحظى بسبق نشرها، دون أن يتحقّق من صحتها، أو حتى من منطقيتها وترابطها مع ما يدور من حوله من أحداث...

ووَفْقًا للمتوالية الهندسية للانتشار، فالشخص الواحد إذا ما تبادل خبرًا وصل إليه، مع فردين فحسب، فبعد خمس دقائق من تلقيه، وقيام كل منهما بالفعل نفسه مع شخصين جديدين، وهكذا، فقد

يصل عدد من تم نقل وتبادل الخبر معهم إلى عدة ملايين قبل مضي يوم واحد، مما يجعل وسائل التواصل الاجتماعي هي الوسيط الأمثل لنشر أية شائعة، مع دعمها بالخدع الصوتية أو البصرية المناسبة؛ لتحقيق نتيجة تكتيكية سريعة، أو حتى نتائج استراتيجية على المدى الطويل وَفْقًا للتأثير المطلوب...

كل هذا حوّل الإنترنت، في حروب الجيل الرابع، من وسيلة لتبادل الآراء والأفكار والابتكارات والمعلومات، إلى واحد من أخطر أسلحة الحرب الجديدة...

ونشر شائعة بسيطة أو شخصية، عبر شبكات التواصل الاجتماعي، أمر لا يحتاج إلى الكثير من الحنكة والمهارة، فيكفي فقط أن تنقلها إلى عدة أشخاص،

وسيقومون هم بالباقي، وهناك من سيصدقها أو من سيرفضها...

هذا لأنها شائعة بسيطة....

أما على مستوى الحروب والخطط والتآمرات، فلا يوجد ما يسمى بالشائعة البسيطة، وخاصة مع تطور الوسائل السمعية والبصرية، وانتشار البرامج القادرة على الخداع والتزييف في كليهما...

وما يسمى بالتسريبات هو أبسط وسيلة للخداع عبر شبكة التواصل الاجتماعي، فهي عبارة عن ادعاء القدرة على تسجيل محادثات خاصة، لأشخاص في السلطة، أو مراكز صنع القرار، وطرحها على شبكات التواصل الاجتماعي؛ لقلب الرأي العام على ذلك المسئول، أو تحويل الدفة الشعبية عنه...

والواقع أن تزييف الصوت هو لعبة، يستطيع أي شاب أن يقوم بها، لو أنه

يمتلك جهاز حاسب آلي، وبرنامجًا خاصًّا بالمونتاج الصوتي، وهناك آلاف من هذه البرامج متاحة للعامة، وكثير منها برامج مجانية للمستهلك...

كل ما يتطلبه الأمر هو جمع بعض أحاديث المسئول المستهدف، عبر شبكة الإنترنت، أو التسجيلات الخاصة، أو حتى اللقاءات العامة، واختيار عبارات خاصة من كل منها، وقصها من سياقها، وإعادة ترتيبها، بحيث تعطي المعنى المطلوب، ثم تعديل نسب ودرجات الصوت، لتتخذ الجمل المستقطعة من لقاءات مختلفة، درجة صوت واحدة، وبعدها الانتقال إلى خانة التأثيرات الصوتية، وإضافة «التحدث عبر الهاتف» إليها، وبهذا يصبح لدينا قص ولصق لشريط صوتي يحمل سمة الحديث عبر الهاتف...

كل مخرج إذاعي، أو حتى فني هندسة صوتية، أو مستخدم جيد للكمبيوتر، يدرك جيداً سهولة الوصول إلى مثل ذلك الشريط الصوتي الزائف....

يتبقى بعد هذا نشر الشريط المصنوع، عبر شبكات التواصل الاجتماعي، وترك المتوالية الهندسية للانتشار تقوم بعملها...

ولماذا التسريبات؟!... ببساطة لأنها صوت معدّل فحسب، أما لو حاولوا استخدام وسائل بصرية، فالأمر شديد التعقيد، نظراً لاختلاف الأماكن والمناسبات والتوقيتات التي تستقطع منها العبارات التي يتم صنع الشريط الصوتي الزائف منها...

ومن هنا تأتي لعنة الإنترنت؛ تلك الشبكة العنكبوتية التي طوّرت علم الشائعات، ونقلته إلى جيل جديد، سمعي

بصري، يمتلك وسيلة مذهلة للانتشار السريع، والتأثير الجمعي على المستوى الاستراتيجي...

ولغير العسكريين، أو من التحقوا بالجيش، فمصطلح استراتيجي يعني «الشامل»؛ أي أن يتم التأثير على كل المستويات، وعلى نطاق واسع للغاية، ولعلنا جميعًا نذكر مصطلح «خطة الخداع الاستراتيجي»، الذي تم تداوله، عقب حرب أكتوبر، والذي استخدم لوصف خطة مصر؛ لخداع أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية، وإقناعها أن مصر لا تفكّر مجرّد تفكير في شن حرب ثأرية؛ لاستعادة سيناء، وكان المصطلح يعني أن كل أجهزة الدولة قد ساهمت –كل بدوره ومساحته– في تلك الخطة، سواء عن علم، أو حتى بدون علم...

نعود إلى حديث عن وسائل الخداع، عبر شبكات التواصل، والتي يخطئ البعض، لو تصوّر أنها مصدر يمكن الاعتماد عليه للمعلومات؛ حيث إنها، على العكس تمامًا، تزخر بالمعلومات الخاطئة والكاذبة، والمزيّفة والمدلّسة والمخادعة....

ولقد تحدثنا عن وسائل الخداع السمعية، ونشرها عبر شبكة الإنترنت، ويمكننا الآن الانتقال إلى الخداع عبر الوسائل البصرية....

ولأن مونتاج الوسائل البصرية أصعب، إلا إذا تم في حدث واحد، ومكان واحد، فأسهل طريقة لغش الوسيلة البصرية هي ما يسمى بالانتقائية المتعمّدة، وهي نشر مقطع فيديو لحديث شخص ما، وإنهاء المقطع في منتصف حديثه، بحيث يأخذ الحديث حتى نقطة «لا تقربوا الصلاة»، وإيقاف المقطع قبل «وأنتم سكارى»...

كذلك يمكن نشر صور ومقاطع قديمة، مع ذكر أنها حديثة، مثل بث مقطع لمظاهرة قديمة مع تغيير التاريخ؛ لتبدو أنها حديثة، أو حتى لحظية...

وأحيانًا يزيِّف أحدهم حدثًا أو واقعة، على نحو تمثيلي متقن، من خلال سينمائيين محترفين، ويبثها باعتبارها حدثًا حقيقيًّا، لاستثارة الرأي العام، وتكوين فكر جمعي عدواني، عبر الإنترنت، و...

وتستمر اللعنة... واللعبة.

* * *



الإعلام خُدْعة....

الإعلام هو مصطلح يطلق على أية وسيلة أو تقنية أو منظومة أو مؤسسة غير تجارية، أو حتى ربحية، عامة أو خاصة، رسمية أو غير رسمية، مهمتها نشر الأخبار ونقل المعلومات...

هذا هو التعريف الذي ورد في الموسوعة الإلكترونية «ويكيبديا» عن الإعلام، وهو تعريف قديم نسبيًّا؛ لأن الإعلام اليوم يشمل موضوعات أخرى عديدة؛ بَدْءًا من الترفيه والتسلية، وحتى تكوين الرأي العام، ونشر الفكر... والشائعات أحيانًا...

وفي كل مناسبة، في أية دولة، ستجد من ينادي بضرورة أن يكون الإعلام محايداً، يتعامل مع كل الآراء والاتجاهات بمنظور واحد وحيادية مطلقة، ودون أن يُدلي بدلوه، أو يعرض وجهة نظره الخاصة...

والواقع أن هذا مستحيل، وحتى غير منطقي أو عقلاني؛ هذا لأنه لا وجود واقعيّاً للإعلام المحايد في أي مكان في العالم، ولا في أي مكان حتى في عالم الخيال؛ ببساطة؛ لأنه لا وجود للإنسان المحايد حياداً مطلقاً، باستثناء الفلاسفة وكبار المفكرين، وهؤلاء وأولئك لا يميلون في المعتاد إلى العمل بالصحافة والإعلام، وإن كان من الممكن أن يشاركوا بإعلام فردي، من خلال شبكات التواصل الاجتماعي، أو صفحاتهم الخاصة، على شبكة الإنترنت...

وفي العصور الحديثة، انضم الراديو والتليفزيون وشبكة الإنترنت، وحتى وسائل التواصل الاجتماعي، إلى منظومة الإعلام، وجرى تدريسها بالفعل كجزء من علم الإعلام...

وعندما يدّعي إعلام ما أنه محايد فهذه أكبر خدعة؛ لأنه في كل الأحوال، سواء أكان الإعلام حكوميًّا رسميًّا، أم حرًّا مستقلًّا؛ فأصحابه لهم سياستهم الخاصة التي يعبِّرون عنها، إما من خلال حجب خبر ما، وإما حذف أجزاء من خبر ما، وإما حتى نشره كاملًا، مع تعقيب يشوِّه صورته، أو نشره قبل أو بعد أمر مخالف له، يتم عرضه بأسلوب أفضل، أو العكس تمامًا... وإما أن يقوم المسئولون عن صحيفة ما، أو قناة تليفزيونية ما، بالتركيز على خبر بعينه، وتضخيمه، وتعظيمه، وتفخيمه؛ لأنه يتمشى مع سياسة القناة أو الجريدة،

أو بمعنى أدق، سياسة أصحاب القناة أو الجريدة... أو ربما أهدافهم...

فلقد نشأت الصحافة في البداية، أو نشأ الإعلام كلاميّاً؛ أي أنه كان هناك من يسيرون في البلاد، لنقل الأخبار والبيانات، ولأن هذه كانت وظيفتهم، فيما عدا قلة متطوّعة منهم، فقد كان هناك من ينفق عليهم ويدفع أجورهم... ومادام هناك من يدفع، فهناك من يحكم على كيفية نقل الخبر، وأسلوب عرضه الذي يحقق له أهدافه الخاصة...

وهكذا دخل الإعلام التاريخ من باب الشائعات والحرب النفسية في الأساس...

ثم تطوَّر الإعلام على هيئة أوامر منقوشة على الحجر، أو مكتوبة على ورق البردي والرقع الجلدية، واقتصر في تلك المرحلة على نقل الأوامر، وتسجيل إنجازات الملوك والحكام، قبل أن تظهر أول

صحيفة مطبوعة إلى الوجود، وهي جريدة التايمز البريطانية، عام ١٧٨٥م، لتحمل أخبار الإمبراطورية التي وصفت أيامها بأنها لا تغيب عنها الشمس؛ لانتشار مستعمراتها في أنحاء العالم كافة...

ثم جاءت فرنسا لتنافس إنجلترا وتنشر المطابع في مستعمراتها، وتصدر فيها صحفًا بالفرنسية؛ كان النصيب الأعظم منها في لبنان وسوريا... حتى جاء محمد علي ليصدر أول صحيفة عربية مطبوعة، وهي الوقائع المصرية، عام ١٨٢٨م، ليتوالى بعدها إصدار الصحف في العالم كله...

ومنذ اليوم الأوّل كانت الصحافة، كأوّل وسيلة إعلامية، تخدم مصالح من يصدرها ويموّلها، ولقد أدركت الماسونية هذا، وأدركت قيمة الإعلام وقوة تأثيره، فقرّرت في وثيقتها الأساسية التي تم العثور

عليها مع فارس قتلته صاعقة في فنلندا، في القرن الخامس عشر، السيطرة بقدر الإمكان على منظومة الإعلام، باعتباره إحدى قوتين، يمكنهما السيطرة على العالم أجمع... المال والإعلام...

وهكذا، ومنذ بدايات القرن السادس عشر، صار الإعلام سلاحًا من أسلحة الحروب، سواء الماسونية أو غيرها، وتم استخدامه بأقصى قدر ممكن في كل الحروب التي تلت ذلك، وبالذات مع بدايات القرن العشرين عندما ظهرت السينما لأوّل مرة على يد الأخوين لوميير، مع أوّل عرض متحرك في المقهى الكبير في شارع كابوشين في باريس في الثامن والعشرين من ديسمبر، عام ١٨٩٥م، وظلت تتطوّر لتتحوّل إلى آلة إعلامية جديدة ساهمت في كل الحروب التالية، بَدْءاً من الحرب العالمية الأولى التي بدأت

في ٢٨ يوليو ١٩١٤م؛ أي بعد تسعة عشر عاماً من اختراع السينما...

الإعلام هو الذي نشر فكر لينين، الذي نجح في استغلال غضب الشعب الروسي من تجاوزات أسرة رومانوف الحاكمة؛ ليخلق رأياً عامّاً بحتمية الثورة... ولقد تم نفي لينين بناءً على هذا إلى ألمانيا التي أرادت إبعاد روسيا عن الحرب العالمية الثانية، فقامت بعملية استخباراتية تعرف باسم «الحصان الحديدي»؛ لإعادة لينين إلى موسكو لقيادة الثورة الشعبية في صفقة تتضمن خروج روسيا من الحرب في حالة نجاح الثورة... وهذا ما كان...

وأثبت الإعلام قوته وجبروت تأثيره عندما نجح في إخراج روسيا، وبالتالي انسحابها من الحرب العالمية الأولى، وإن لم يمنع هذا هزيمة ألمانيا وانتهاء الحرب في ١١ نوفمبر ١٩١٨م، بعد أن علّمت العالم كله

تلك الخدعة الإعلامية القادرة على أن تتساوى مع أخطر أسلحة الحروب الحديثة....

ولقد بدا هذا واضحًا، في الحرب العالمية الثانية، مع تطوُّر السينما وظهور الجرائد السينمائية التي تنقل الأخبار وتوجهها حسبما يرغب المسيطرون عليها؛ وَفْقًا لأهدافهم الخاصة وإحداث التأثيرات الجمعية، وتوجيه الرأي العام في الاتجاهين؛ الإيجابي لشعوبها، والسلبي لأعدائها...

وفي حرب الجيل الرابع، صار الإعلام هو أقوى الأسلحة على الإطلاق بعد أن تطوَّرت وسائله وتعدَّدت؛ من الصحافة المطبوعة وحتى شبكة الإنترنت، ووسائل التواصل الاجتماعي المنتشرة في العالم كله، والتي صارت أشبه بإدمان إلكتروني جديد لدى الملايين من سكان العالم، ووسيلة

مثلى لنشر الشائعات، واستخدام الحرب النفسية على أوسع نطاق بتضخيم الأخطاء والهزائم الصغيرة، وتسفيه الإنجازات والانتصارات الكبيرة، وخاصة مع أهم آفات هذا العصر... الكسل...

كسل العاملين في الإعلام أدى إلى تقوية هذا السلاح الخطير، وجعله أشبه بقنبلة نووية نفسية ذات تأثير مدمِّر فتاك...

فالإعلاميون من الصحافة المطبوعة، وحتى أقوى شبكات التواصل الاجتماعي، صاروا يعتمدون بعضهم على بعض سلبيًّا، وتلاشى أو كاد الجهد الفردي المبذول؛ للتيَّقن من صحة المعلومات، فما إن ينشر أحدهم خبرًا في أية وسيلة إعلامية، حتى يسارع الكل بتناقل الخبر ونشره، سواء بإسناده إلى مصدره أو لا، دون حتى التحقُّق من صحة الخبر،

أو مصداقيته، أو حتى المصدر الذي جاء منه!!...

ولقد أراد أحد الخبثاء إثبات هذا الكسل الإعلامي بوسيلة هزلية، تسخر من كل الإعلاميين، فنشر أخبارًا زائفة، نسبها إلى ما أسماه «سيفون دوت كوم» «**Syphon.com**»، وهو موقع لا وجود له، ووكالة إخبارية وهمية، وعلى الرغم من ذلك فقد أعادت صحف كبرى نشر نفس الأخبار الزائفة، ونسبتها إلى المصدر الوهمي نفسه، والذي لا وجود له، دون أن تبذل صحيفة واحدة أدنى جهد؛ للتيقُّن من الخبر، أو من المصدر الذي نسب إليه... وكانت مهزلة في الوسط الصحفي كله....

المهزلة قد تتحوَّل إلى سلاح جبار، في حرب الجيل الرابع، لو استخدمها عدو مستغلًّا آفة الكسل نفسها، وأسلوب

الإسراع في نقل أي خبر، دون التأكّد من صحته أو مصدره...

بالطبع سيرى البعض أن هذا فكر مريض بنظرية المؤامرة... ولهذا حديث.

* * *

٦

نظرية المؤامرة

نظرية المؤامرة، أو «**Conspiracy theory**»، هو مصطلح يردده المؤمنون بالتشكيك في كل الأحداث العالمية والمحلية، والذين يصنعون سلسلة من الأحداث السياسية والاجتماعية والتاريخية، بحيث تبدو وكأنها سلسلة من الأكاذيب التي ينسبونها دومًا للحكومات، باعتبارها أنظمة متآمرة على نحو منظم، ويرون أن كل حدث ما هو إلا حلقة من سلسلة مؤامرة كبرى تهيمن عليها أنظمة علنية أو سرية كاذبة، تدير الأحداث من وراء ستار...

وأوّل ما فكرت فيه حروب الجيل الرابع «٤GW»، هو النظر إليها باعتبارها جزءاً من نظرية المؤامرة التي يقف المتعاملون معها دومًا على أقصى طرفي النقيض، فإما أن يروا المؤامرة في كل شيء، وإما أن يسخروا من فكرة المؤامرة في كل شيء...

ولأن حرب الجيل الرابع هي في أساسها وخطواتها المعلنة مؤامرة واضحة، تستغل وضوحها في التأثير على الكثير من العقول؛ فإن أوّل ما فعلته؛ لتصرف أنظار الناس عن كونها مؤامرة، هو نشر السخرية من فكرة نظرية المؤامرة على نطاق واسع...

فالانغماس في فكرة نظرية المؤامرة هوس كبير، وجزء من مرض الوسواس القهري، ورفض نظرية المؤامرة في حسم هو أيضًا هوس كبير؛ لأنه كثيرًا ما تكون المؤامرة أوضح من رفضها، ولعل

الرافضين لها، في هذه الحالة، لا يرفضون نظرية المؤامرة في حد ذاتها، ولكنهم يرفضون فكرة أن يكون هناك من يعبث بهم وبعقولهم ومشاعرهم هكذا، كما لو كانوا مجرّد دمى أو أحجار على رقعة شطرنج كبيرة...

ولكن من يقرأ كتاب رجل المخابرات الأمريكي السابق مايلز كوبلاند «لعبة الأمم»، والذي أثار ضجة كبيرة عند نشره عام ١٩٦٩م؛ باعتبارها المرة الأولى التي يتحدّث فيها رجل مخابرات عن كيفية التلاعب بالشعوب والنظم الحاكمة؛ من أجل تغيير مقادير دول كاملة، وتوجيهها إلى ما يخدم المصالح الأمريكية – سيدرك فورًا أن هناك شيئًا حقيقيًا اسمه نظرية المؤامرة التي تحاك على مستوى عالٍ جدًا من أجل إعادة تشكيل العالم بما يخدم المصالح الأمريكية، ويحافظ على تفوّقها

وزعامتها للعالم، وأن هذه المؤامرة تحاك منذ عقود في توالٍ منظم مدروس، يؤتي ثماره، على الرغم من نشره علانية أكثر من مرة!!...

وأمريكا لا تفعل هذا لأنها شريرة، أو لأنها الشيطان الأعظم، كما يحلو للبعض وصفها، وخصوصًا بين الأوساط المتطرِّفة «مع ملاحظة أنهم أكثر من يتعامل معها»، ولكن أمريكا، على عكسنا، استفادت جيدًا من دروس التاريخ وأدركت أن القوى في العالم ليست ثابتة أو مؤمَّنة، ولكن مثلها مثل غيرها، يمكن أن تسقط أو تنهار؛ لتحل محلها قوى أخرى...

فقديمًا، كانت تحكم العالم قوتان... الفرس والروم، وكانت كل منهما إمبراطورية عظيمة، تكاد تهيمن على نصف العالم، ولكن سرعان ما سقطت كلتاهما؛ إما بسبب أخطاء وتجاوزات، وإما

لظهور قوى جديدة احتلت الساحة وأزاحتهما من عرش القوة ومقعد الزعامة....

ثم ظهر العرب المسلمون كقوة عظمى انتشرت على نطاق واسع، وفتحت الاندلس، وبقيت فيها أكثر من سبعة قرون، ولكنها لم تنتبه إلى ظهور ونمو قوى أخرى؛ مثل القشتاليين الذين سرعان ما استعادوا الأندلس في عهد فرناندو وإيزابيلا؛ لتظهر قوة جديدة إسبانية نجحت في الوصول إلى الأرض الجديدة في أمريكا، وكان يمكن أن تسيطر على العالمين، القديم والحديث، لولا أن نافستها إنجلترا وحدّت من سلطاتها، وسرعان ما سيطرت على النصف الشمالي من الأرض الجديدة؛ لتتحوّل إلى قوة كبرى اغترّت بنفسها، ولم تهتم بصعود قوة أخرى، وهي فرنسا، حتى فوجئت بأن

فرنسا تتقاسم معها المستعمرات، وتكاد تتحوَّل إلى إمبراطورية منافسة، لا تغيب عنها الشمس أيضًا...

في الوقت ذاته، كانت هناك إمبراطورية عثمانية تنمو، وتمد نفوذها إلى شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، وتتحوَّل إلى قوة عظمى يخشاها العالم كله راحت تنافس إنجلترا وفرنسا على زعامة العالم، حتى قرَّرت ألمانيا دخول اللعبة، وأشعلت الحرب العالمية الأولى على أمل أن تصبح إمبراطورية عظمى تمتد من الشرق إلى الغرب، وتحالفت معها الإمبراطورية العثمانية، وأيضًا على أمل أن تمد نفوذها، ولكن الهزيمة كانت من نصيبهما معًا؛ لتنهض إنجلترا وفرنسا كقوتين عظميين، وتنكمش الإمبراطورية العثمانية مع ألمانيا، وتفقدا قوتيهما ونفوذهما....

قبلها حاول محمد علي أن يجعل من مصر قوة عظمى، وكاد ينجح في هذا بالفعل ويصل بجيوشه إلى الآستانة نفسها، مقر الخلافة العثمانية، ولكن الكل تآزر ضده خشية أن يهدد إمبراطورياتهم في المستقبل، وأجبروه على التراجع والاكتفاء بمصر والسودان...

ولقد احتفظت إنجلترا وفرنسا بعرش القوى العظمى من الحرب العالمية الأولى التي خرجتا منها منتصرتين قويتين حتى تسلّم هتلر السلطة في ألمانيا كزعيم للحزب النازي عام ١٩٣٣م، وبدأ يخطّط لاستعادة مجد الإمبراطورية الألمانية...

اندلعت الحرب العالمية الثانية، عام ١٩٣٩م، وإنجلترا وفرنسا هما القوتان العظميان في العالم، وانتهت عام ١٩٤٥م، وقد انقلبت موازين القوى،وصارت أمريكا هي زعيمة العالم بعد اختراعها القنبلة

الذرية، أعظم وأقوى سلاح عرفه العالم عسكريّاً، حتى هذه اللحظة، وسرعان ما لحقت بها روسيا التي صارت الاتحاد السوفيتي، عندما فجّرت قنبلتها الأولى، عام ١٩٤٩م، لتتقاسم القوتان العظميان العالم عبر الأسلوب الاستعماري الحديث الذي لا يستخدم حرب السلاح العسكرية، وإنما الحرب الاقتصادية والاجتماعية...

أمريكا وعت درس التاريخ، وسعت لأربعة عقود، لإسقاط الاتحاد السوفيتي، دون أن تحتاج إلى شن حرب عسكرية، أو تضطر إلى مواجهة حربية، حتى نجحت في هذا عام ١٩٩١م، وربما كان هذا السقوط هو أول اختبار حقيقي لما يمكن أن تفعله حروب الجيل الرابع...

والمؤامرة الأمريكية المعلنة هي جزء من منظومة كبيرة تسعى من خلالها الولايات المتحدة الأمريكية لضمان عدم نهوض أو

نمو قوى عظمى جديدة قد تصير منافسة لها مستقبلًا، أو طامعة فيها، ساعية لإسقاطها، كما فعلت هي مع الاتحاد السوفيتي من قبل....

أمريكا إذن لا تفعل هذا من منطلق شرير أو شيطاني، وإنما من منطلق أمن قومي بحت، ولكن مشكلتنا أننا دائمًا نغضب؛ لأن أمريكا ترعى أمنها القومي، دون أن تبالي بنا وبأمننا القومي، على الرغم من أن هذا هو واجب أمريكا تجاه شعبها.... أن تحميه هو وتحافظ على أمنه حتى لو كان هذا عن طريق هدم أمتنا نحن!!...

ومن غير المنطقي، في الواقع، أن نطلب من غيرنا أن يرعى مصالحنا؛ فكل كيان على الأرض، وكما كان منذ الأزل، يحمي كيانه هو وحده، حتى لو اضطر لمحاربة

وهدم أية كيانات أخرى تهدّد وجوده، أو حتى قد تهدّد وجوده يومًا ما...

نحن إذن لسنا أمام نظرية مؤامرة، في حرب الجيل الرابع، بل نحن أمام مؤامرة واضحة، لم يحاول حتى أصحابها إخفاءها، فالمؤامرة معلنة، بما يتم تداوله عسكريّاً وعلميّاً تحت مسمى «الحرب الجديدة»، ويتم تدريسها وعمل محاضرات علنية لها، في المعاهد الاستراتيجية وفي كل أنحاء العالم تقريبًا؛ بحيث لم يعد الأمر يحتاج إلا لدراسة كيفية التعامل معها ومواجهتها، وحماية أمننا القومي منها، علمًا بأن السخرية من نظرية المؤامرة هي الخطوة الأولى لنجاح المؤامرة؛ لأننا لو سخرنا من فكرة المؤامرة واستبعدناها؛ فسيعني هذا أنه لم يتبق لنا سوى تصديق كل الشائعات، وترديد كل

الأكاذيب، والسعي لخراب وطننا، دون حتى أن ندري!!...

والسخرية من نظرية المؤامرة تؤدي إلى خلافات حادة بين المؤمنين بالنظرية والساخرين منها والرافضين لها، مما يؤدي إلى أهم أسلحة حرب الجيل الرابع.... الفوضى... وهذا يحتاج إلى حديث جديد.

* * *

٧

الفوضى

في إبريل عام ٢٠٠٥م – وفي حديث صحفي، أدلت به وزيرة الخارجية الامريكية كونداليزا رايس لصحيفة الواشنطن بوست، في عهد الرئيس الأمريكي جورج دابليو بوش – استخدمت وزيرة الخارجية، ولأوّل مرة، مصطلح «الفوضى الخلاقة» الذي صار مصطلحًا يردده الكل حتى الآن، دون حتى معرفة أصوله أو التفكير في مضمونه...

ولقد استخدمت كونداليزا رايس هذا المصطلح، وهي تعلن عن نية الولايات المتحدة الأمريكية إعادة تشكيل الشرق

الأوسط، وإنشاء ما يعرف بالشرق الأوسط الجديد الذي يرعى المصالح الأمريكية والإسرائيلية؛ وذلك عبر نشر الفوضى الخلاقة في الشرق الأوسط من خلال الإدارة الأمريكية...

الأمر كان واضحًا وصريحًا ومباشرًا، كأنهم يعتبرون العرب عميانًا جهلاء لا يقرءون ولا يفقهون!!...

الأوضح أنه عقب هذا التصريح، انتشرت في العالم العربي جماعات القتل المسلَّحة التي تعمل وَفْقَ منظومة إرهابية، قد تبدو متفرِّقة ظاهريًّا، تحت مسميات مختلفة، ولكن يجمعها هدف واحد.... الفوضى...

وما أطلقنا عليه، تسرعًا، اسم الربيع العربي – لم يكن سوى الخطوة الثانية في خطة نشر الفوضى في الشرق الأوسط كله؛ تمهيداً لهدم أنظمته وإعادة

تقسيمه على نحو عرقي طائفي، ولابد أن يؤدي إلى «ديلم» من الصراعات والحروب التي تنتشر المزيد من الفوضى، وتستنزف موارد العالم العربي وطاقاته وثرواته أيضًا، وتفني نسبة كبيرة من شبابه، بسلاح النسبة الأخرى حتى ينتهي الأمر إلى شرق أوسط جديد ضعيف ومتهالك، دون أية قدرة في الحاضر، أو أمل في المستقبل، وهكذا لا يتبقى في الشرق الأوسط سوى قوة واحدة –انشغلت القوى العربية كلها بصراعاتها عنها– إسرائيل...

وعندما تسود إسرائيل في النهاية، ويكون لديها وحدها مفتاح إعادة تنظيم الفوضى التي أحدثتها ونمّتها وغذّتها الإدارة الأمريكية – ترتاح أمريكا؛ لأن هذا بالفعل ما يخدم مصالحها، ويضمن استمرارها على عرش العالم لأطول فترة ممكنة...

الخطة بدأ التفكير فيها عام ١٩٩٢م عقب سقوط الاتحاد السوفيتي وتقسيمه على يد ميخائيل جورباتشوف الذي تحيط به شبهات عديدة في أنه كان جاسوساً أمريكيّا خاملًا؛ تم إعداده وتدريبه، ومساعدته بكل السبل على الوصول إلى أعلى مراتب السلطة في الحزب الشيوعي السوفيتي دون أن يطلب منه أي عمل من شأنه إثارة الشك حوله؛ حتى يمكنه تنفيذ الهدف الأسمى من تجنيده في اللحظة المناسبة... وبالأسلوب المناسب... وفي التوقيت الأمثل...

فمن العجيب بالنسبة لشخص أظهر شدة الولاء للحزب الشيوعي السوفيتي لسنوات – أن يتحوَّل فجأة بمائة وثمانين درجة إلى هدم كل ما ربحه السوفيت، منذ الحرب العالمية الثانية، دون أية مقدمات!!...

وتماماً كما تنص قواعد حرب الجيل الرابع، والتي كانت تمر بمرحلة اختبار خطوات غير مرتبة منها، ففكّك جورباتشوف الاتحاد السوفيتي، عبر مجموعة من المصطلحات الأنيقة الرنانة التي لا يمكن الخلاف عليها، والتي تثير حماسة الشباب، كلما وحيثما وأينما قيلت، مثل الحرية والديمقراطية والعدالة .... إلخ

وأصدر جورباتشوف كتابين، يعبران عن السياسة التمهيدية، لتفكيك الاتحاد السوفيتي والقضاء عليه «البريسترويكا»، وتعني إعادة البناء، و«الجلاسنوست»، وتعني الشفافية أو المصارحة باللغة الروسية، والكلمتان تحملان كل ما كان يحلم به الشعب السوفيتي، منذ عام ١٩١٧م، عندما انتهت ثورته بحكم البلاشفة الذين حوّلوا روسيا إلى سجن شيوعي كبير، لا يجرؤ فيه أحد على الكلام، ولا يأمن

فيه مخلوق على حاضره أو يومه أو مستقبله...

الإصلاح والمصارحة كانا الكلمتين السحريتين اللتين سيطر بهما جورباتشوف على عقول وقلوب السوفيت، وربما على قلوب وعقول كل محبي الحرية من شباب العالم، وخاصة عندما هدم جدار برلين، وأعاد دمج برلين الشرقية بالغربية، مما كان أشبه بقصة خيالية ذات نهاية سعيدة، يخفق لها قلب المستمعين والمشاهدين، وتسيل معها دموعهم، وهم يغادرون ساحة العرض...

ووسط هذه المسرحية الدرامية، وتحت تصفيق الشعب السوفيتي والعالم، لم يكن من الصعب على جورباتشوف تفكيك الاتحاد السوفيتي، وتقسيم ثرواته على دول صغيرة كانت يومًا مجرَّد أقاليم تحت علمه...

وربحت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب الباردة دون أن تطلق رصاصة واحدة، وتزعّمت وحدها العالم الجديد وهي منتشية بذلك الانتصار الهادئ الذي لم يكلفها جنديًا واحدًا... ولكنها –وعلى الرغم من هذا– ظلت تخشى أن تسترد روسيا عافيتها، وينهض المارد من رقاده مرة أخرى...

ولهذا كان عليها أن تستخدم العصا السحرية... الفوضى...

فعلى الرغم من الديكتاتورية، في عهد الاتحاد السوفيتي، ما قبل جورباتشوف، فقد كانت الحياة هناك تسير، والناس تجد ما تأكله وتشربه وترتديه، والمكان الذي تسكن إليه آخر اليوم...

وفي فوضى ما بعد جورباتشوف اختلفت الصورة تمامًا، فقد ظهرت عدة تنظيمات إجرامية، تصارعت فيما بينها

على السلطة في عالم الشارع، حتى نمت المافيا الروسية وسيطرت على الشارع الروسي الذي افتقر إلى نظام قوي يمكنه أن يقف في وجهها على عكس السابق...

وكان يمكن لحالة الفوضى هذه أن تصل بروسيا إلى قاع القاع، وخاصة بعد أن تم بيع الصحف القومية والمصانع والشركات، وصار القطاع الخاص الذي تملك المافيا الروسية معظمه هو المسيطر على روسيا وصاحب اليد العليا فيها – لولا تولي فلاديمير بوتين، رجل الكي جي بي السابق السلطة، في الثامن من مايو عام ٢٠٠٠م، وهو مصمم على إعادة مجد الاتحاد السوفيتي، وعدم السماح باستمرار الفوضى التي تريح قلب الأمن القومي الأمريكي...

وخلال فترة حكمه الأولى، بدأ بوتين في استعادة ما تم بيعه من الأصول الروسية،

ولأنه رجل مخابرات سابق، فقد تعامل مع المافيا الروسية بما يناسبها؛ مسترشداً بفيلم الأب الروحي، أحد أهم أفلام القرن العشرين...

ففي بعض المرات، كان يفعل بالضبط ما ورد ذكره في الفيلم، عندما تم وضع عقد بيع أمام رجل الأعمال الذي اشترى الأصول الروسية، ومسدس على جبهته، مع تأكيد أنه بعد خمس دقائق، توقيعه أو مخه، سيكون على هذا العقد...

هزم بوتين الفوضى الأمريكية، واستعاد جزءاً كبيراً من هيبة روسيا، وأعاد إلى الروس الأمل في رفع الرأس مرة أخرى، حتى إنه بعد نهاية فترة ولايته الثانية ترك الحكم وَفْقًا للدستور المعدّل، في السابع من مايو ٢٠٠٨م، ثم عاد يتولى السلطة مرة أخرى، في السابع من مايو ٢٠١٢م، وحتى

لحظة كتابة هذه السطور، بمباركة الشعب الروسي كله...

انتصر بوتين على الفوضى؛ لأنه رجل مخابرات سابق، أدرك، كما كشف الكاتب الأمريكي دان براون عام ٢٠٠٨م، أن مصطلح الفوضى الخلاقة لا يحمل بصمة كونداليزا رايس، وليس من ابتكارها، ولكنه ورد بنفس المعنى، ولنفس الغرض، في الوثيقة الماسونية في القرن السادس عشر، مما قد يوحي بصلة رايس بالتنظيمات الماسونية السرية أيضًا...

أحد أسلحة حرب الجيل الرابع إذن هو الفوضى التي ليست خلاقة، كما تصفها الخدعة، ولكنها الفوضى المدمِّرة التي لا تبالي بكم ضحاياها، ولا بكم سيراق من دماء من أجلها ما دامت تحقق في النهاية الهدف الأسمى منها... خدمة المصالح الأمريكية... ولنا بقية.

* * *

٨

شارب أم شارك...

جين شارب، أستاذ العلوم السياسية في جامعة ماساتشوستس، والمرشح لنيل جائزة نوبل للسلام – هو دارس جاد مسالم، ولد في الحادي والعشرين من يناير، عام ١٩٢٨م، وتأثر كثيراً بقصة كفاح المهاتما غاندي، وبخاصة نظريته في المقاومة السلمية للاستبداد إبان الاحتلال البريطاني للهند، والتي بدأها «أهمسا» أو اللاعنف الكامل، ثم تحوّلت إلى «سانيا جراها» أو العصيان المدني الشامل، والتي أدّت في النهاية إلى استقلال الهند،

وألهمت الكثير من حركات الحقوق المدنية والحريات في جميع أنحاء العالم...

وعبر سنوات، نجح أسلوب المقاومة السلمية في إسقاط الأنظمة الديكتاتورية؛ في أستونيا ولاتفيا ولتوانيا وبولندا وغيرها، مما أثار انتباه واهتمام جين شارب، فدرس طرق المقاومة السلمية، ووضع لها الأسس والقواعد المنظمة، كباحث جاد، واشتهر عالميّاً بكتابه الأشهر «من الديكتاتورية إلى الديمقراطية»، والذي صار دستوراً للحركات التحررية، في أنحاء العالم كافة...

الرجل كان يتعامل مع الأمر كدارس، ولا يقصد به شرّاً، ولكن كان يحاول توعية الشعوب التي تعاني نير الظلم والعبودية لنظم شمولية ديكتاتورية قاسية ومنفردة، بكيفية المقاومة السليمة، البعيدة عن العنف، ونيل حقوقها في

الديمقراطية والحرية والعدالة الاجتماعية والقانونية...

ولكن حرب الجيل الرابع لم تتعامل مع الأمر بالروح نفسها...

لقد رأى زبانية حروب الجيل الرابع أن كتاب جين شارب الذي يحلو لي أحيانًا تسميته جين شارك – يمكن أن يستخدم أيضًا في هدم أية أنظمة لا تتناسب مع المصالح العليا الأمريكية، عن طريق الأسلوب نفسه مع إحداث تطوّر جديد فيه....

فالشباب أساس كل الحركات التحررية في العالم، وهم دومًا الوقود المناسب للثورات، وللتآمرات أيضًا، باعتبار أنهم يملكون دومًا صفتين مناسبتين، ومفيدتين لأي متآمر محترف... الكثير من الحماس، والقليل من المعلومات والخبرة...

بهاتين الصفتين يمكن تحويل كتابات جين شارب إلى شارك، أو سمك قرش جاهز للانقضاض على أي نظام يتعارض مع المصالح الأمريكية، أو حتى يمكن أن يتعارض معها مستقبلًا...

ويتم ذلك عن الطريق نفسه، والوسيلة نفسها المتبعة لتجنيد العناصر المتطرِّفة؛ لكي ترتكب فظائع رهيبة لا آدمية، أو بمعنى أدق شيطانية، وهي تتصوَّر أنها تدافع عن دين اللّه سبحانه وتعالى وشريعته في الأرض!!!...

كل المطلوب هو أن تعطي تفسيرات ذات هدف استراتيجي لعبارات لا يمكن الاختلاف على مضمونها، وإعادة توجيهها وَفْقًا لتلك التفسيرات، بحيث تتخذ مسارًا جديدًا قد يكون معاكسًا تمامًا للمسار الأصلي، ولكن الحماس والاندفاع وقلة المعلومات، تغشي الأبصار، وتربك

المفاهيم، فيبدو المنطق معكوسًا، وتتخذ كل المسارات اتجاهًا مضادًّا لاتجاهاتها الأصلية...

فلو تحدثنا عن الحرية، وربطنا الحرية بمفهوم حرية الإنسان في فعل ما يشاء، وقتما يشاء، وكيفما يشاء، دون ضابط أو رابط، ثم عملنا على تقوية هذا المفهوم في نفوس الدارسين، واستغلال قلة خبرتهم في زيادة حماستهم للفكرة؛ حتى ينطلقوا في الشوارع؛ لتحويلها إلى حقيقة، متصورين أنهم بهذا يدافعون عن مفهوم الحرية، فستسود فوضى الشوارع، وتضطرب الشعوب والأنظمة، ويجد المجرمون والبلطجية فرصة سانحة مع الفوضى للانقضاض على الأبرياء والمسالمين، وقهر حريتهم وأمنهم وسلامتهم، والاعتداء على ممتلكاتهم وأموالهم وأعراضهم، وربما أرواحهم أيضًا،

في ظل فوضى عارمة نشأت عن مفهوم خاطئ للحرية!!..

هكذا بالضبط تعمل حروب الجيل الرابع؛ لإسقاط الأنظمة وهدم الدول، وإشاعة ما أسمته الماسونية القديمة، وردّدته كونداليزا رايس، تحت اسم الفوضى الخلّاقة، والتي تنشأ من فوضى لا أخلاقية، وتنتهي بفوضى عارمة، قبل أن تتدخّل جهة ما، تم إعدادها مسبقًا لمقاومة الفوضى بالقوة المسلحة، بحيث تسوس البلاد، وتفرض عليها واقعًا جديداً يكون في المعتاد أكثر ديكتاتورية وقهراً واستبداداً، من الأنظمة التي أسقطها مفهوم خاطئ...

هذا ما يمكن أن يحدث من مفهوم خاطئ واحد من مفاهيم كثيرة؛ مثل الديمقراطية والعدالة وحقوق الإنسان والأقليات التي يمكن استغلال قلة معارف

الدارس مع كثرة حماسته؛ لوضعها في قوالب خاطئة ذات مسامع أنيقة مبهرة، مقنعة بتبنيها، والانطلاق بكل حماسته خلفها دون أن يدرك، لقلة خبرته، أنه مجرَّد مطية لمؤامرة كبرى، تستخدمه لتحقيق أهدافها التي تتعارض دومًا مع مصالحه وأمنه، ولكنه لا يدرك هذا حتى يفاجأ بالنتائج في النهاية، وحينما لا يكون هناك سبيل للتراجع...

والدارس للتاريخ يمكن أن يعود إلى تاريخ الثورة البلشيفية في روسيا ١٩١٧م، والتي خرج فيها الليبراليون بالملايين، يطالبون بإسقاط حكم أسرة رومانوف المستبدة، ولم يدركوا أن الأصابع التي تحرِّكهم هي في حقيقتها مصالح بلشيفية خالصة، تندس بينهم، وتشعل حماستهم، من أجل تحقيق مصالحها وأهدافها الخاصة؛ حتى إنها وعندما

وجدت أن الشرطة لا تتعامل بعنف مع المتظاهرين، وتكتفي بضربهم بظهر السيف دون نصله، قامت العناصر البلشيفية المندسة وسط المتظاهرين الليبراليين، بإطلاق النار على المتظاهرين وسط الزحام، وصرخت بأن الشرطة قتلتهم، مما أثار حماسة الدم لدى المتظاهرين، فانقضوا في شراسة على رجال الشرطة الذين وجدوا أحدهم يذبح على يد المتظاهرين، فبدءوا في الدفاع عن أنفسهم؛ لتسيل الدماء أكثر، ويتزايد العنف أكثر وأكثر، وينتهي الأمر بسقوط الشرطة، وسيطرة البلاشفة على الثورة...

واعتلى البلاشفة منصة الحكم التي وصلوا إليها عبر استثارة الليبراليين بالحديث عن الحرية والديمقراطية والعدالة، واتخذوا قرارات مستبدة، لم يقبل بها البرلمان الروسي «الدوما»، فما

كان منهم إلا أن اقتحموا مقر البرلمان واعتقلوا أعضاءَه، وأعلنوا أنفسهم سلطة مطلقة...

وثار الليبراليون، على ما بدا من الواضح أنه اعتداء سافر على الحرية والديمقراطية والعدالة، وخرجوا في تظاهرات مليونية، يرفضون ما فعله البلاشفة... نفس الليبراليين خرجوا في نفس المليونيات، ولنفس الأهداف التي خرجوا من أجلها، عندما دفعهم البلاشفة لذلك، ولكن الأمور اختلفت، فعندما استبدل البلاشفة بديكتاتورية عائلة رومانوف ديكتاتوريتهم، إذا بهم يواجهون التظاهرات تلك المرة بمنتهى القسوة، ويطلقون النار بلا رحمة على المتظاهرين الليبراليين، ويقتلون منهم من يقتلون، دون أن يطرف لهم جفن حتى أمكنهم قمع التظاهرات، وقهر الليبراليين

والمفكرين، وفرض الفكر البلشفي الشيوعي على الجميع بقوة السلاح؛ ليستمر حكمهم بالقوة والقهر لسبعين سنة كاملة، أذاقوا خلالها الشعب الروسي، وبالذات الليبراليين، مر العذاب والقهر والاعتقال والتعذيب... والقتل أيضًا، حتى إن أحدهم كان يتباهى بأنه يحاكم المنشقين عن النظام الشيوعي، ويصدر عليهم حكم الإعدام وينفذه بيده، في عشر دقائق!!!...

الأمريكيون درسوا هذا، وفهموه جيداً، وضموه إلى ملف حروب الجيل الرابع؛ ليفهموا كيف يمكن العبث بالشعوب ومقاديرها عبر الشباب كثير الحماس قليل الخبرة، ومزجت ما استوعبته من هذا، مع دراسات جين شارب، الدارس المسالم؛ لتصنع من كل هذا شَرَكًا أو «شارك» قادر على التهام الأنظمة

وافتراس الشعوب بالوسيلة نفسها... بلا رحمة.

* * *

٩

لعبة الإرهاب...

الإرهاب... أقوى أسلحة حروب الجيل الرابع لتدمير الدول واستنزاف مواردها ودفعها إلى حروب داخلية؛ ترهق جيشها وأمنها... وحتى شعوبها مع مرور الوقت... فحروب الجيل الرابع تعتمد على الإرهاب والاستخدام المنهجي للإرهاب، ولو بحثنا في الموسوعات عن تعريف الإرهاب فسنجد أنه وسيلة من وسائل الإكراه، وإجبار الآخرين على اعتناق أفكار بالقوة لا تتفق مع قناعاتهم، سواء في المجتمع المحلي أو في المجتمع الدولي، وعلى الرغم من ذلك، فالإرهاب ليست لديه

أهداف متفق عليها عالميّا ولا ملزمة قانونًا، وتعريف القانون الجنائي له بالإضافة إلى تعريفات مشتركة للإرهاب تشير إلى تلك الأفعال العنيفة التي تهدف إلى خلق أجواء من الخوف، ويكون موجهًا ضد أتباع طوائف دينية أو أخرى سياسية معينة، أو هدف أيديولوجي، وفيه استهداف متعمد أو تجاهل متناهٍ لسلامة المدنيين، وهذا مايمكنك أن تراه في وضوح، في القنابل التي يتم زرعها، في منشآت مدنية، أو تعج بالمدنيين... بعض تعريفات الإرهاب تشمل الآن أعمال العنف غير المشروعة وحرب العصابات، واستهداف أفراد الجيش والشرطة، والسعي لاحتلال الأراضي بالقوة...

والعجيب أن الأساليب التي يتبعها الإرهابيون، تتشابه تمامًا مع ما يتم عادة استخدامه كتكتيكات مماثلة من قبل

المنظمات الإجرامية الكبيرة لفرض قوانينها وبسط نفوذها على المناطق التي ترغب في سيادتها من طرف واحد...

وبسبب التعقيدات السياسية والدينية فقد أصبح مفهوم هذه التعريفات غامضًا أحيانًا، ومختلفًا عليه في أحيان أخرى... الجدير بالذكر أن **المسيحيين** قد عانوا من خلل تلك المفاهيم، في زمن ما؛ بسبب استهداف الجماعات المتطرفة لهم وأيضًا **الإسلام نفسه نال نصيبه من هذا، وتعرّض للإرهاب، ولخلل المفاهيم والمضامين** في الوقت الراهن؛ لأسباب سياسية تحكمها صراعات ومطامع دولية وإقليمية، كلها تعمل سواء أدركت هذا أو لا، لحساب حروب الجيل الرابع التي أدركت أهمية الإرهاب كسلاح جبار من أسلحة حروبها...

ولقد أكد الكاتب والمحلل السياسي اللبناني قاسم محمد عثمان أن تاريخ

العمل الإرهابي يعود إلى ثقافة الإنسان بحب السيطرة وزجر الناس وتخويفهم؛ بغية الحصول على مبتغاه بشكل يتعارض مع المفاهيم الاجتماعية الثابتة... وقد وضع الكاتب نفسه تفسيرًا لمعنى كلمة الإرهاب، ووصفه بأنه العنف المتعمد الذي تقوم به جماعات غير حكومية أو عملاء سريون بدافع سياسي ضد أهداف غير مقاتلة ويهدف عادة للتأثير على الجمهور، وضرب روحه المعنوية في مقتل، ودفع للثورة على أنظمته أو معاداتها على الأقل....

والعمل الإرهابي عمل قديم يعود بنا تاريخيًّا إلى مئات السنين ولم يستحدث قريبًا في تاريخنا المعاصر. ففي القرن الأول وكما ورد في العهد القديم، أقدمت جماعة من المتعصبين على ترويع **أغنياء اليهود** الذين تعاونوا مع المحتل الروماني

للمناطق الواقعة في شرق البحر الأبيض المتوسّط... وفي القرن الحادي عشر، لم يتورّع الحشاشون عن بث الرعب بين الآمنين عن طريق القتل، والحشاشون، أو **الدعوة الجديدة**، كما أسموا أنفسهم، هم طائفة إسماعيلية نزارية، انفصلت عن الفاطميين في أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي لتدعو إلى إمامة **نزار المصطفى للدين**، ومن جاء مِن نسله، واشتهرت ما بين القرنين الخامس والسابع الهجري؛ الموافقين للقرنين الحادي عشر والثالث عشر ميلاديّا، وكانت معاقلهم الأساسية في بلاد فارس والشام بعد أن هاجر إليها بعضهم من إيران... أسّس الطائفة الحسن بن الصباح الذي اتخذ من قلعة آلموت في فارس مركزاً لنشر دعوته؛ وترسيخ أركان دولته...

اتخذت دولة الحشاشين من القلاع الحصينة في قمم الجبال معقلًا لنشر الدعوة الإسماعيلية النزارية في إيران والشام، ممّا أكسبها عداءً شديداً مع الخلافة العباسية والفاطمية والدول والسلطنات الكبرى التابعة لهما، مثل **السلاجقة والخوارزميين والزنكيين والأيوبيين، وحتى الصليبيين**، لكن جميع تلك الدول فشلت في استئصالهم طوال عشرات السنين من الحروب...

كانت الاستراتيجية العسكرية للحشاشين تعتمد على الاغتيالات التي يقوم بها انتحاريون لا يأبهون بالموت في سبيل تحقيق هدفهم، حيث كان هؤلاء الانتحاريون يُلقون الرعب في قلوب الحكّام والأمراء المعادين لهم، بل وتمكنوا من اغتيال العديد من الشخصيات الهامة جدّاً في ذلك الوقت؛ مثل الوزير السلجوقي

نظام الملك والخليفة العباسي **المسترشد والراشد، وكونارد ملك بيت المقدس آنذاك...**

وعلى مدى قرنين، قاوم الحشاشون الجهود المبذولة من الدولة لقمعهم وتحييد إرهابهم، وقد برعوا في تحقيق أهدافهم السياسية عن طريق الإرهاب...

ولقد قضى المغول **بقيادة هولاكو** على هذه الطائفة في فارس سنة **١٢٥٦م** بعد مذبحة كبيرة، تم خلالها ذبح كل من ينتمي للحشاشين، حتى النساء والأطفال، وإحراق القلاع والمكاتب الإسماعيلية، وسرعان ما تهاوت الحركة في الشام أيضًا على يد **الظاهر بيبرس** سنة **١٢٧٣م**، لتنتهي بذلك أسوأ فترة إرهابية في تلك الفترة...

وعلى جانب آخر، لاننسى حقبة الثورة الفرنسية «١٧٨٩ – ١٧٩٩م»، والتي يصفها

المؤرخون بزمن الرعب؛ فقد كان الهرج والمرج يسودان تلك الفترة إلى درجة وصف معها إرهاب تلك الفترة بالإرهاب الممول من قبل الدولة، فلم يطل الهلع والرعب جموع الشعب الفرنسي العادي فحسب، بل طال الرعب كل الشريحة الأرستقراطية الأوروبية عمومًا؛ خشية انتقاله إليها، على نحو أو آخر...

والهدف الأسمى للإرهاب هو خلق اضطراب ملحوظ في التوازنات الداخلية والخارجية للدول المستهدفة، وهذا هو أهم أهداف الإرهاب؛ نظرًا لأهمية هذه التوازنات، بالنسبة لأية دولة تسعى للاستقرار... وهذا الفعل الإجرامي ربما تقوم به بعض المنظمات والتنظيمات العالمية السرية، وأحيانًا المعلنة، في غياب توازن القوى والنفوذ، والتي تكون تابعة إما لأشخاص وإما لبعض الدول، من أجل

السيطرة على دول بعينها معروفة بخيراتها وثرواتها، لإضعافها وتفكيكها؛ تمهيداً لغزوها المباشر أو غير المباشر، والسيطرة على هذه الخيرات والثروات ونهبها، والاستفادة منها، على حساب أصحابها الأصليين...

ولو أننا حاولنا تحليل نفسية الإرهابي أو الشخص الذي يمارس الإرهاب، فسنجد أنه في المعتاد يجمع بين صفتين أساسيتين... نزعة دموية عنيفة؛ ناشئة عن غضب مكبوت، أو إحساس بالنقص، أوبعدم القدرة على مجاراة المجتمع، ماديّا أو اجتماعيّا، وتوق شديد إلى السلطة بكل ما تمنحه من سطوة وقدرة على السيطرة على الآخرين...

فالبلطجي الذي يشعر بالغضب من قلة موارده وضآلة مكانته وسط المجتمع الذي يعيش فيه، فيعمد إلى حمل مطواة،

يهدّد بها كل من يقف في سبيل حصوله، عما لا حق له فيه – هو أقرب شخص يمكن تحويله إلى إرهابي، فقط بمنحه سلاحًا أقوى، مع لقب يشعره بالأهمية، كأمير منطقة، أو مسئول عن مجموعة ما، أو خطة ما... في هذه الحالة، ومع شعوره بالقوة والأهمية، يصبح مستعدًا لقتل مجتمعه كله، على ألا يفقد ما حصل عليه...

والغضب الذي نما داخله، عبر سنوات طوال، يصبح الوقود الناري الذي يدفعه لارتكاب المذابح البشعة، متصوّرًا أنه ينتقم بهذا من مرحلة ضعفه وقلة حيلته...

ويرى البعض أن من أحد الأسباب التي تجعل شخصًا ما إرهابيًا، أو مجموعة ما إرهابية هو عدم استطاعة هذا الشخص أو هذه المجموعة إحداث تغيير بوسائل

مشروعة، سواء كانت اقتصادية أو عن طريق الاحتجاج أو الاعتراض، أو المطالبة والمناشدة بإحداث تغيير، إيجابيًّا كان أم سلبيًّا، وأنه بتوفير الأذن الصاغية لما يطلبه الناس «سواء أغلبية أو أقلية»، من شأنه أن ينزع فتيل حدوث أو تفاقم الأعمال الإرهابية...

وفي كل الأحوال، فقد درس زبانية حروب الجيل الرابع الإرهاب بالتفصيل، وقرّروا تبنيه، بدلًا من محاربته؛ لتحقيق أهداف أكبر... ولهذا تاريخ..

* * *

١٠

التاريخ الأسود

في كل مكان في العالم هناك أغلبية وأقلية... ووَفْقَ كل النظم الديمقراطية المعروفة والمتعارف عليها، تضع الأغلبية القواعد التي يسير عليها المجتمع، وتخضع لها كل النظم والقوانين... والمفترض من الأقلية أن تسير على هذا المنهج، وأن تسعى، بالطرق الديمقراطية أيضًا، إلى جذب الاتجاهات الفكرية إليها، بحيث تتحوّل مع الوقت إلى أغلبية، قادرة على وضع أسسها وقواعدها... ولكنّ الإرهاب والإرهابيين لا يؤمنون أبدًا بالديمقراطية وقواعدها، وبعضهم

يصفها بالكفر والإلحاد؛ لأن عقيدة الإرهاب هي أن تفرض الأقلية على الأغلبية شروطها وقواعدها، بالقوة والقهر والسلاح والدم... والإرهاب مصطلح يتم ترديده في الآونة الأخيرة للتعبير عن حالة من العنف الوحشي، يتم توجيهها إلى المجتمع على نحو عشوائي، ودون تمييز، مما يهدد حياة وأمن وسلامة أي مواطن، في أية لحظة، بغض النظر عن جنسه أو سنه، أو عقيدته، أو فكره...

الإرهاب هو وسيلة غير شرعية لإكراه المجتمعات على سياسات بعينها تتعارض مع ما تتفق عليه إرادة هذه المجتمعات، وذلك عبر استخدام القوة المفرطة التي تهدف إلى خلق أجواء من التخويف والترويع... والإرهاب يكون موجّهًا دومًا ضد بعض المعارضين سياسيًّا أو دينيًّا أو أيديولوجيًّا، وفيه استهداف

متعمّد أو تجاهل لسلامة المدنيين، وهو أعمال غير مشروعة، ونوع من الحروب القذرة التي تستخدم نفس التكتيكات، التي تستخدمها المنظمات الإجرامية لفرض قوانينها الخاصة التي تتعارض مع المجتمع...

وكما قلنا من قبل، تعود أسباب الإرهاب إلى ثقافة حب السيطرة، والرغبة في الفوز بمكاسبَ غيرِ مشروعة، وزجر الناس لإجبارهم على الإتيان بما يتعارض مع مفاهيمهم الاجتماعية الثابتة...

وتاريخ الإرهاب أسود، بدءاً من طائفة الحشاشين، في القرن الحادي عشر الميلادي، وحتى تنظيم داعش وبيت المقدس وغيرهما، في أيامنا هذه...

والذين يتزعمون الإرهاب يعملون دوماً على غسل عقول شباب يمتلئ بالحماس، واستغلال فورة الشباب في عروقهم،

لإعادة توجيههم لتنفيذ أهداف لا يدركون هم أنفسهم طبيعتها الحقيقية، ولا ما يمكن أن تؤدي إليه...

ومن أبرز ما أدّى إليه الإرهاب من خلال شباب مشوّش الفكر، مضلّل عن حقيقة الهدف – اغتيال الخليفة الراشد «علي بن أبي طالب» على يد الخوارج الذين يعدُّون من أبرز أمثلة الإرهاب في سنوات الإسلام الأولى... واختطاف الجابرية لطائرة كويتية من قبل حزب اللّه الكويتي... ونشر غاز السارين السام في نفق القطارات في «اليابان»... وتفجيرات مانشيستر ١٩٩٦م، على يد ما يسمى بالجيش الجمهوري الإيرلندي... وحادثة تفجير طائرة «بان إم» في سماء «لوكيربي» الإسكتلندية... وتفجير المبنى الفيدرالي في ولاية «أوكلاهوما» الأمريكية... وتفجير برجي التجارة العالميين في نيويورك عام ٢٠٠١م...

وتفجيرات «الرياض» و«الخُبَر»، عام ١٩٩٥م... وتفجيرات «مدريد» ٢٠٠٤م... وتفجيرات «لندن» ٧ يوليو ٢٠٠٥م... وتفجيرات السفارات الأمريكية، في «نيروبي» و«دار السلام»...

أما على المستوى المحلي، فتاريخنا حافل بعمليات إرهابية للأسف؛ أبرزها محاولة اغتيال وزراء الداخلية المتعاقبين، خلال تسعينيات القرن العشرين... ومحاولة اغتيال «عاطف صدقي»، رئيس الوزراء الأسبق، بواسطة سيارة مفخّخة، مما تسبّب في قتل طالبة شابة ١٩٩٣م... ومحاولة اغتيال وزير الإعلام الأسبق عام ١٩٩٣م... واغتيال رئيس مجلس الشعب «رفعت المحجوب» عام ١٩٩٠م... واغتيال المفكّر «فرج فودة» ١٩٩٢م...

ولعل أبرز عمليات الإرهاب المحلية ذات الأثر الكبير – اغتيال الرئيس الأسبق

«محمد أنور السادات» في ذكرى انتصار أكتوبر عام ١٩٨١م... ومذبحة «أسيوط» عام ١٩٨١م، والتي تعد من أبشع عمليات الإرهاب المعروفة؛ إذ تمت قبل صلاة عيد الأضحى، وراح ضحيتها مائة وواحد وثمانون شخصًا، بينهم خمسة ضباط ومائة جندي، كانوا يؤدون واجبهم، واثنا عشر مواطنًا كانوا متوجهين لأداء صلاة العيد، كما أصيب المئات من المواطنين؛ كانت إصابة بعضهم خطيرة، وتوفي إثرها الكثير فيما بعد... ومذبحة الأقصر في ١٧ نوفمبر ١٩٩٧م، في الدير البحْري، حيث تم قتل وذبح ثمانية وخمسين سائحًا بمنتهى الوحشية في خلال خمس وأربعين دقيقة، ثم التمثيل بجثثهم على نحو بشع... واغتيال العديد من رجال الشرطة أثناء تأدية واجبهم في حماية أمن الوطن، في محافظة سيناء في

٢٠١٣م... ومحاولة اغتيال وزير الداخلية في عام ٢٠١٣م... واغتيال النائب العام في ٢٩ يونيو ٢٠١٥م...

والإرهاب كما سبق أن تبيّن ليس موجهًا إلى فئات بعينها، وإنما هو يوجّه دومًا تجاه كل من يختلف معه أو يتعارض مع أهدافه، وهو في هذا لا يختلف كثيرًا عن التنظيمات الإجرامية، أو الجريمة المنظمة، بل إن بعض المحللين يصل إلى أن الإرهاب هو نوع من أنواع الجريمة المنظمة، يتخفى تحت أهداف تبدو سامية في ظاهرها، ولكنها في واقعها تتماثل مع كل ما تمارسه الجريمة المنظمة، وإن كان الإرهاب أكثر قسوة وشراسة ووحشية؛ لأن أفراده يتصوّرون أنهم يقاتلون من أجل قضايا عادلة...

ولأن الإرهاب هو نوع من حرب العصابات، فهو لا يواجه أبدًا، ولكنه يعتمد على مبدأ

الغدر والفرار والاختباء؛ لذا فمقاومة الإرهاب تختلف حتمًا عن مواجهة عدو واضح لديه شجاعة المواجهة وشرف القتال؛ ولهذا فقد اعتمدت عليه حروب الجيل الرابع كسلاح خفي مزعج، باعتبار أن الحرب معه أشبه بالحرب مع فئران تغزو منزلًا، فما إن تطفأ الأنوار حتى يخرجوا للتدمير والفتك، وفور إشعال الضوء يتفرقون، ويهرع كل منهم إلى وكره؛ ليختبئ فيه حتى تطفأ الأنوار مرة أخرى، وربما أن هذا ماحدا بأحد خبراء الحروب إلى تسمية حرب الإرهاب بحرب الفئران...

وباعتبار الإرهاب أشبه بالفئران، فمقاومته كسلاح من أسلحة حروب الجيل الرابع، لا يمكن أن تتم بالأسلوب التقليدي، كمواجهة تجارة المخدرات مثلًا، وإنما تتم مقاومته من خلال عدة وسائل في آن واحد، مثل إصدار قوانين حاسمة قوية في

مواجهة الأعمال الإرهابية، وكل وسائل ترويع أو تخويف المواطنين الأبرياء... والتوعية الاجتماعية بطبيعة الإرهاب وخطره على المواطن العادي... والتعريف بالأسس السليمة للحياة الديمقراطية، والوسائل المشروعة للتعبير عن الرأي، وطرح الأفكار... التوعية الاجتماعية بضرورة مقاومة كل مظاهر الإرهاب، والإبلاغ عن كل ما يشتبه في كونه تمهيداً لعمل إرهابي... هذا مع ضرورة وجود عيون ساهرة تراقب وتتابع وتحمي الفرد والمجتمع، والوطن بأكمله، من كل خطر يتربّص به، وتجميع المعلومات عن البؤر الإرهابية لمنع عملياتها الوحشية قبل حدوثها... وأخيراً، وهو الأهم، رفع الحس الأمني لدى المواطن؛ ليدرك أن الإرهاب لا وطن له ولا مبدأ، وأنه ومهما كان مايبرّر به أفعاله، أويتاجر به من مبادئ – يمكن أن

يستهدفه أو أسرته في أية لحظة، دون أي ذنب أو جريرة.... فقط للترويع والتخويف وفرض الرأي...

أو باختصار... للإرهاب...

وإرهاب الجيل الرابع للحروب إرهاب مموّل من جهات كبرى، أو دول ثرية نسبيّا؛ لأن أهداف تلك الدول – والتي يسعى الإرهاب لبلوغها، دون أن يدرك أحيانًا أنه مطية لجهات أكبر – لا يستهدف مجرّد إزعاج الدولة المستهدفة، أو قتل حفنة من ضباطها وجنودها، بل هو يستهدف إعاقة تطوّر تلك الدولة عبر استنزاف مواردها، أو تدمير بنيتها الأساسية...

هي إذن لعبة أشبه بلعبة العض على الأصابع، والتي يلعبها بعض الصبية في عدد من قرى الصعيد، والتي تعتمد على أن يضع كل من اللاعبين إصبعه في فم

الآخر، ويعض كل منهما على الإصبع في قوة، ومن يصرخ أوّلًا يخسر...

جزء كبير إذن من لعبة الإرهاب هو الاقتصاد، وهو يحكم حتى الأهداف التي يختارها الإرهاب، ويفسّر أيضًا لماذا يهتم الإرهاب جدًّا بعمليات غسيل المخ التي يستطيع بوساطتها إقناع بعض الأشخاص المتزمتين ضعاف العقول، منعدمي المنطق، بتفجير أنفسهم في عربات انتحارية؛ لنسف أهداف كبيرة... فالذي يفجّر نفسه هو بالنسبة لمن دفعه إلى هذا لا يساوي شيئًا، لا من الناحية النفعية ولا القتالية، وإلا مافرّط في نفسه على هذا النحو، ولكنه بفعلته، يمكن أن ينسف مكانًا هامًّا، أو يقتل عددًا من الأفراد ذوي القيمة...

فمن أهم قواعد الحروب، ألا تخسر سلاحًا قيمته مائة ألف جنيه مثلًا، لتفجير هدف

يساوي ربع ثمنه؛ لأنك بهذا تخسر الحرب اقتصاديّاً، على أي مدى...

والحديث عن الاقتصاد يقودنا إلى شق آخر من حروب الجيل الرابع... وإلى حديث آخر.

* * *

١١

القرش الأبيض أهم...

ثلاثة أسئلة يكمن فيها أخطر أسلحة حروب الجيل الرابع، والمستقاة من التاريخ...

١ – كيف خسرت ألمانيا النازية الحرب على الرغم من تفوّقها المتواصل في العتاد والسلاح والابتكارات التكنولوجية التي ساهمت كثيراً في تطوّر الحلفاء الذين انتصروا في الحرب العالمية الثانية «١٩٣٩–١٩٤٥م»؟!..

فالمتابع والدارس لتاريخ الحرب العالمية الثانية، سيجد نفسه يقف مندهشاً، أمام ذلك التطوّر الهائل الذي أحدثته ألمانيا

النازية في أساليب الحروب الحديثة، وفي تطوُّر التكنولوجيا على النطاقين؛ الحربي والمدني، فهي أوَّل من استخدم الطيران كوسيلة لتمهيد أرض المعركة، بدلًا من المدفعية المستخدمة في الحرب العالمية الأولى، وهي أوَّل من طوَّر الدبابات، وزوَّدها بمدافع بعيدة المدى، وبجنازير قادرة على عبور المناطق غير الممهَّدة، وأوَّل من اخترع طائرة نفاثة مقاتلة، وأوَّل من صنع صاروخًا يمكن إطلاقه على أهداف بعيدة، وأوَّل من ابتكر فكرة إنزال قوات كاملة بالمظلات لتقاتل خلف خطوط العدو، ومن قبلها كانوا أوَّل من بث إرسالًا تليفزيونيًّا، وأوَّل من صنع سيارات شعبية، وأوَّل وأوَّل.... وأوَّل...

وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية بهزيمة ألمانيا النازية، تسابق الأمريكيون والسوفيت على اقتسام العلماء الألمان

في كل المجالات، ولولا أن فاز الأمريكيون بفون براون، الملقب بأبي الصواريخ، لما استطاعوا صنع برنامج الفضاء الذي ساعدهم في الوصول إلى القمر كمحطة أولى، وإلى عبور المجموعة الشمسية فيما بعد...

حتى الطائرات الشبح؛ أخذها الأمريكيون من تصميمات ألمانية نازية، لما أطلقوا عليها في حينها اسم «الجناح الطائر»، والذي لم يتسن للنازيين استكماله قبل أن ينتهي بهم المطاف إلى الهزيمة...

لماذا إذن خسرت ألمانيا النازية الحرب العالمية الثانية، وهي صاحبة الريادة في كل هذه المجالات؟!

٢ – حرب فيتنام التي استمرت من ١٣ أغسطس ١٩٥٦م، وحتى ١٧ يونيو ١٩٧٥م...

كيف لم تنتصر فيها أمريكا التي خرجت من الحرب العالمية الثانية كدولة عظمى،

وهي تواجه ثوار الفيت كونج الذين يقلون عنها كثيرًا في العدد والعتاد؟!... كيف؟!..

فالفيت كونج مجرَّد ثوار ثاروا على حكومة فيتنام الجنوبية، وشجعتهم فيتنام الشمالية على هذا، وازدادت الحرب ضراوة فسارعت أمريكا بإرسال مستشارين مدنيين وعسكريين إلى فيتنام الجنوبية، ثم لم تلبث أن أرسلت قوات عسكرية، وشنت غارات جوية مكثفة على فيتنام الشمالية، وظلت تحارب هناك لعشرين عامًا دون أن تحقق نصرًا يذكر، قبل أن تضطر لسحب قواتها والتخلي عن الحرب!!!...

٣ – كيف فشل الاتحاد السوفيتي في احتلاله أفغانستان على الرغم من إدخاله لجيشه الأربعين بأكمله إليها، في ٢٥ ديسمبر ١٩٧٩م، ولم يستطع دعم الحكومة الأفغانية الموالية للسوفيت –

آنذاك– مما اضطره للانسحاب بَدْءاً من ١٥ مايو ١٩٨٨م، وحتى أعلن سحب قواته كافة بشكل رسمي من أفغانستان في ٥ فبراير ١٩٨٩م لينهار الكيان السوفيتي بالكامل في ٢١ ديسمبر ١٩٩١م؟!...

أسئلة قد تبدو الإجابة عنها محيِّرة، ولكنها كلها تنتهي بإجابة واحدة... الاقتصاد...

فالحروب الثلاث لم تكن تستند إلى القوة العسكرية وحدها، ولكن إلى الاقتصاد بالدرجة الأولى، وهو ما يسمى في العلوم العسكرية بفن الاستنزاف الاقتصادي، والذي يعتمد على دفع العدو إلى استنزاف قوته وموارده في قتال متشعِّب، بحيث يصل إلى مرحلة تصبح فيها الحرب غير مجدية، بل تمثل خسارة فادحة على اقتصاده الذي يتم تجنيده في هذه الحالة للإنتاج الحربي وحده، من

أسلحة وذخائر وخلافه، ثم سرعان ما يعاني نقص المواد الخام اللازمة لصناعة الأسلحة والذخائر، مما يضطره لاستيرادها، أو الاستيلاء عليها، وهو ما يمثل المزيد من العبء على اقتصاده والنقص في موارده، حيث إنه يضطر في مرحلة ما إلى إنهاء الحرب حتى ولو اعترف بخسارته لها، أو حتى لم يعترف...

ففي الحرب العالمية الثانية مثلًا، كانت ألمانيا – ومنذ معاهدة فرساي، التي اضطرت لتوقيعها، عقب هزيمتها في الحرب العالمية الأولى – تدفع تعويضات باهظة لأوروبا؛ مما استنزف اقتصادها، وأخل بميزانها المالي، ولكن حكومة هتلر، على الرغم من ديكتاتوريتها، استطاعت رأب ذلك الصدع، وإيجاد موارد تكفي لبناء قوة عسكرة سرية على خلاف ما تنص عليه المعاهدة، وبعدها، ولأن

موارده شارفت على النفاد، بدأ في احتلال الدول التي تحوي أراضيها الحديد والمواد الخام التي تستلزمها صناعة السلاح والذخيرة، وبدأ في الاستيلاء على موارد تلك الدول، وتسخير سكانها للعمل في مصانع أسلحته دون أجر، ولكن طول الحرب، واتساع رقعتها من أوروبا إلى إفريقيا إلى الاتحاد السوفيتي في آسيا، راح يستنزف موارده الاقتصادية، بأكثر مما يمكنه الاستيلاء عليه من الدول التي احتلَّها... ورويداً رويداً بدأ اقتصاده ينهار، ولم يعد باستطاعته إكمال المسيرة، ولم تسمح له دول التحالف بالتراجع عن الحرب، التي أشعلها هو....

حتى تطوير الأسلحة الحربية، كان يحتاج إلى مواردَ اقتصاديةٍ كبيرة، على الرغم من أن آلاف العاملين فيه كانوا من المعتقلين، من دول محتلة، والذين كانوا يعملون بلا

أجر، ولكن الخامات والتصنيع أنفسهما كانا يحتاجان إلى موارد...

ربما لهذا لم تنته اختراعات عديدة كان يمكن أن تمنح هتلر النصر، لو أنها أنجزت في الوقت المناسب، أو كانت هناك قدرة اقتصادية على إنجازها... فخسر هتلر...

وفي حرب فيتنام كانت لعبة الاستنزاف الاقتصادي تجري على قدم وساق، فالأمريكيون يحاربون إلى جانب فيتنام الجنوبية، والروس والصينيون يزودون فيتنام الشمالية وثوار الفيت كونج بالمال والسلاح والعتاد، وكل طرف يسعى لاستنزاف الآخر اقتصاديًّا، وبخاصة أن اللعبة تدار على أرض لا تعني الطرفين...

ولقد انتبهت أمريكا إلى اللعبة فانسحبت من المعركة قبل أن تستنزفها الصين وروسيا اقتصاديًّا، وحافظت على وجودها أمام التحالف الشيوعي، وسرعان

ما حدث الاتحاد والاندماج بين فيتنام الشمالية والجنوبية، وانحسم الأمر...

العكس حدث في أفغانستان، فالاتحاد السوفيتي دخل الحرب الأفغانية، متصوِّرًا أنها حرب سيربحها حتمًا؛ باعتبار أنه الطرف الأقوى، وأن المقاومة التي تزعَّمها تنظيم القاعدة يستحيل أن تهزم جيشًا نظاميًّا، فهذا لم يحدث قط عبر التاريخ...

ولكن شراسة السوفيت جلبت عليهم سخطًا دوليًّا، وخاصة عندما استخدموا مروحياتهم الهجومية «MEL–ME–٢٤»، في تدمير قرى بأكملها بسكانها ومواشيها، فتدخلت أمريكا، والسعودية والصين وإنجلترا وباكستان ودول أخرى، فزوَّدت الأفغان بالسلاح والعتاد والمال وحتى المقاتلين، وزوَّدتهم أمريكا بصواريخ «Stinger Fim– ٩٢» التي ساعدتهم على اصطياد المروحيات السوفيتية في الجو،

مما كبّد السوفيت خسائر فادحة؛ عسكرية واقتصادية... باختصار، كان استنزافًا اقتصاديًا من الدرجة الأولى، لم يجبر الاتحاد السوفيتي على الخروج من أفغانستان فحسب، وإنما آذى اقتصاده إلى حد الانهيار، إذ لم يؤدِّ إلى الخروج من أفغانستان فحسب، وإنما إلى سقوطه وتفكك جمهورياته، في ديسمبر ١٩٩١م؛ أي بعد انسحابه من أفغانستان بأقل من ثلاث سنوات...

كان هذا أوّل اختبار لقوة الاستنزاف الاقتصادي في حروب الجيل الرابع وقدرته على هدم دولة هائلة كانت حتى ١٩٩١م، تعد إحدى القوتين العظميين اللتين تتقاسمان النفوذ في العالم...

ومن الطبيعي مع تلك النتيجة التي لم يكن يحلم بها أحد، أن تسعى أمريكا لاستخدام لعبة الاستنزاف الاقتصادي هذه

في حروب الجيل الرابع خاصة... وبعدة صور مختلفة.

* * *

١٢

البنّاءون الهدّامون...

في منتصف القرن السابع عشر، وذات ليلة ممطرة، انطلق فارس على جواده يعبر غابات فنلندا في طريقه إلى هدف لم يعلمه أحد قط؛ لأن ذلك الفارس لم يصل إلى هدفه، فتحت المطر والريح أصابته صاعقة أودت بحياته وحياة جواده ليسقط صريعًا، وفي جعبته أخطر وثيقة عرفها التاريخ...

تلك الوثيقة، المكتوبة بالعبرية، تمت ترجمتها إلى الفنلندية عقب العثور على جثة ذلك الفارس، وكانت صدمة لملك فنلندا جعلته يصدر فرمانًا بطرد كل

اليهود من مملكته، وقتل من يرفض المغادرة، بعد أن هاله محتوى تلك الوثيقة التي كانت نسخة من كل ما تم الاتفاق عليه في محافل الماسونية الحديثة التي نشأت في بدايات القرن السابع عشر تحت اسم الماسونية الرمزية، والتي كانت تطويرًا وتحديثًا للماسونية القديمة التي اختلف المؤرخون في تحديد منشئها وبداياتها، ولكنهم اتفقوا على أنها بدأت كنقابات صغيرة للبنائين الذين عاشوا عصرهم الذهبي في عصور النهضة، مع شيوع بناء الكنائس الكبيرة والكاتدرائيات الضخمة، كإبراز من البنائين لقوتهم وكثرة عددهم، ولكن جاءت مرحلة قل فيها البناء، فلم تجد تلك النقابات من يموِّلها، ففتحت أبوابها لفئات أخرى، كان لكل منها محفله، مما حوَّل تلك النقابات الماسونية من جهات ترعى

البنائين وتتحاشى السياسة، إلى جماعات تدس أنفها في كل سياسة، وعلى نحو بالغ الخبث والدهاء...

ودائرة المعارف البريطانية تعرِّف الماسونية بأنها أكبر جمعية سرية في العالم، وهذا على الرغم من أن لها جمعيات وأماكن رسمية في معظم الدول الكبرى، بل وتصدر مجلة دورية في إنجلترا، حيث يوجد محفلها الأعظم في لندن «**The United Grand Lodge**»، والمجلة كانت ومازالت تحمل اسمًا لاتينيًّا معقدًا «**Aro Conorium Buarteyr**»، وتعبِّر عن فكر الماسونية الرمزية الحديثة...

أما تلك الوثيقة التي لم يكن العالم ليعلم عنها شيئًا، لولا تلك الصاعقة في غابات فنلندا، فتعرف عالميًّا باسم «الوثيقة الماسونية»، أما ترجمتها إلى

العربية فقد حملت اسمًا لا صلة مباشرة له بالماسونية...

اسم «بروتوكولات حكماء صهيون»...

ولإجابة التساؤل عن سر ربط الماسونية باليهود، على الرغم من نشأتها في عصور النهضة الإيطالية، يكفي أن نعلم أن الوثيقة الماسونية قد احتوت على خطة طويلة المدى، تبدأ من منتصف القرن السابع عشر، وتمتد حتى عام ٢٠٥٠م، حيث يفترض معها أن تحقق الهدف الأسمى لها؛ ألا وهو ظهور ملك اليهود الذي يحكم العالم بأجمعه...

وتلك الوثيقة حددت ضرورة أن يمر العالم بثلاث حروب عالمية، نشأت الأولى بالفعل في ٢٨ يوليو ١٩١٤م بعد اغتيال ولي عهد النمسا، وانتهت في ١١ نوفمبر ١٩١٨م، مخلفة أكثر من تسعة ملايين قتيل، وواضعة إنجلترا وفرنسا كقوتين

عظميين تحكمان العالم، في حين انتهت معها الإمبراطورية العثمانية وانكمشت...

أما الحرب الثانية، فبدأت في أول سبتمبر ١٩٣٩م بغزو جيش هتلر النازي لبولندا، وانتهت في الثاني من سبتمبر ١٩٤٥م باستسلام اليابان للحلفاء، وأزاحت إنجلترا وفرنسا من عرش زعامة العالم، لتحتل أمريكا العرش وحدها، باعتبارها مالكة القنبلة الذرية، والحائز الوحيد لذلك السلاح الجبار الذي أزال مدينة هيروشيما اليابانية في ٦ أغسطس ١٩٤٥م، ومدينة ناجازاكي في التاسع من الشهر نفسه، ثم سرعان ما فجّر الاتحاد السوفيتي قنبلته الذرية الأولى، في ٢٩ أغسطس ١٩٤٩م، لتتقاسم أمريكا زعامة العالم مع السوفيت كأكبر قوتين عظميين إلى حين...

وقبل أن نتطرّق إلى الحرب العالمية الثالثة التي خطّطت لها الماسونية منذ

منتصف القرن السابع عشر، دعونا نتوقّف عند سؤال هام...

ما صلة الماسونية بحروب الجيل الرابع، موضوع الدراسة؟!...

الواقع أنه لإجابة هذا السؤال، لابد أن ندرس التاريخ الاقتصادي للماسونية العالمية بعد اندماج محافلها الأربعة، في منتصف القرن السابع عشر، فلقد أدرك شياطين الماسونية أن العالم يحكمه عاملان فحسب، هما الأعلى في مراتب الإغواء... الجنس والمال... ولهذا فقد استخدمتهما الماسونية إلى أقصى مدى ممكن في الحرب العالمية الأولى... ففي سويسرا –المحايدة دومًا– اختاروا قلعة في مكان أعلى الجبال، وجعلوا منها ناديًا خاصًّا، لا يرتاده إلا من يقع الاختيار عليهم، أو يرشحهم عضوان قديمان على الأقل... ذلك النادي كان يضم سيدات مجتمع

شغوفات بالمغامرة، وكلهن مقنّعات، ويحظر على إحداهن نزع قناعها، أو الإفصاح عن هويتها الحقيقية، ويطرد العضو الذي يحاول نزع قناع إحداهن، أو سؤالها عن هويتها...

وكان الأعضاء المفضلون في ذلك النادي الخاص هم ضباط الجيوش المتحاربة الذين كانوا يشعرون بالفخر بانضمامهم إلى ذلك النادي، وبالنشوة لقدرتهم على إقامة علاقات غامضة مثيرة، مع سيدات مجتمع كن في الواقع يمنحن المتعة مقابل معلومات يلقيها العضو دون حتى أن يدرك أنه يفعل، من فرط نشوته بالموقف، وما يحيط به من مظاهر مبهرة... وهكذا صنعت الماسونية أوّل نظام ابتزاز عاطفي للمعلومات، على نحو منظم....

أما من ناحية المال والاقتصاد فاللعبة كانت على مستوى أكبر بكثير، فقد أدرك شياطين الماسونية أن المال مفتاح القوة، ولهذا اهتموا كثيراً بإنشاء المصارف التي يودع الناس فيها مدخراتهم، بحيث يصبح في قدرتهم هم استثمارها حيثما وكيفما يريدون، وكان اليهود بالطبع هم أوّل من هُرِعَ إلى هذا، بحكم طبيعتهم المالية الشرهة... والشرسة أيضًا... ولم تكن السيطرة المالية بالأمر السهل بالنسبة إليهم، فقد واجهتهم عقبات عديدة كانت أخطرها المستعمرات الأمريكية...

لقد أدركوا في سرعة أن تلك الأرض الجديدة واعدة، وأنه لابد من السيطرة عليها في مهدها، ولكن اقتصاد أمريكا، كمستعمرة إنجليزية في ذلك الحين، كان أكثر قوة من اقتصاد إنجلترا نفسها، بسبب أن أمريكا كانت تعتمد على غطاء

عملة من الفضة وليس من الذهب، ولم تكن تطرح في التداول إلا ما يساوي الغطاء النقدي فحسب، ولذلك ظلت عملتها قوية، على الرغم من كونها – حتى تلك الفترة– مستعمرة إنجليزية، ولم تكن قد اندلعت فيها بعد حروب الاستقلال «١٩ إبريل ١٧٧٥م– ٣سبتمبر ١٧٨٣م»، والتي انتهت بتوقيع معاهدة باريس، والتي اعترفت فيها بريطانيا باستقلال أمريكا...

كان العالم كله يعترف بالعملة الأمريكية آنذاك، ذات غطاء الفضة، ولكن شياطين الاقتصاد الماسوني كانوا يرىدون أمريكا ضعيفة حتى يمكنهم السيطرة عليها، ولذلك فقد راحوا يشترون كل بنك أوروبي يمكنهم شراؤه، واستخدموا كل نفوذهم لاستصدار قرار يحصر قيمة العملة الأمريكية في أمريكا وحدها، بحيث لا

تصبح لها أية قوة خارج أمريكا، ولكنهم وجدوا أنه من العسير عليهم استصدار مثل هذا القرار، ما لم يمتلكوا أقوى بنوك العالم –آنذاك– والمتحكِّم في حركة العملة العالمية، وهو بنك إنجلترا...

ولأن بنك إنجلترا كان أكبر وأقوى من أن يشتريه أحدهم، فقد كانت مرحلة تاريخية اتخذوا فيها قرارًا اقتصاديًّا، غيَّر مسار العالم كله من بعده... فقد اتحدوا معًا، فيما أسموه «اتحاد الصيارفة».... روكفلر وروتشيلد وغيرهما صنعوا كيانًا اقتصاديًّا جبارًا، استطاع شراء بنك إنجلترا، والحصول بموجب هذا على حق صك العملة، وهو ما كان اللبنة الأولى لما يعرف الآن باسم «صندوق النقد الدولي»...

والحكاية طويلة... ولها بقية.

* * *

١٣

قـــرون...

منذ القرن السابع عشر الميلادي وضع قادة الماسونية الجديدة التي أطلقوا عليها اسم الماسونية الرمزية خطتهم التي تستهدف الوصول بالعالم إلى قمة الفوضى، مما يسمح في النهاية بأن يحكمه ملك اليهود، كما تنص وثيقتهم التي أسقطها القدر في أيدي الفنلنديين، في منتصف القرن السابع عشر، والتي ترجمناها نحن تحت اسم «بروتوكولات حكماء صهيون»...

وبموجب خطتهم اجتمع أصحاب البنوك العالمية منهم، فيما أسموه باتحاد

الصيارفة، وأمكنهم شراء بنك إنجلترا، والحصول على حق صك العملة، والسيطرة على النقد العالمي، في ذلك الزمن، عندما كانت أمريكا لا تزال مستعمرة بريطانية، سعوا بكل قوتهم للسيطرة عليها، باستشعار أنها لن تلبث أن تصبح قوة لا يستهان بها...

ولأن غطاء النقد الأمريكي يعتمد على الفضة، ولأنهم من يحكم قوانين تداول العملة، قرروا ألا يعتد بأية عملة ليس لها غطاء من الذهب، مما أوقع المستعمرة الأمريكية في أزمة اقتصادية، حيث لم تعد عملتها مقبولة في الدول الأخرى؛ باعتبار أنها لا تعتمد على غطاء الذهب المطلوب...

ولكن أمريكا تمردت على القرار ورفضت القرار البريطاني؛ مما أشعل حرب الاستقلال الأمريكية في ١٩ إبريل ١٧٧٥م،

في نفس الوقت الذي انطلقت فيه حمى البحث عن الذهب في أمريكا، وبدأ كبار التجار في بيع مخزونهم من الفضة، لشراء الذهب الخام من أوروبا وإفريقيا التي كانت هدفًا لتجارة العبيد أيضًا...

وانتهت حرب الاستقلال في ٣ سبتمبر ١٧٨٣م، وقد اعترفت بريطانيا باستقلال أمريكا التي كانت قد حققّت رصيداً جيداً من الذهب سمح لها بالنهوض كأمة مستقلة... وهنا صرف اتحاد الصيارفة نظره عنها مؤقتًا، واتجه مرة أخرى إلى أوروبا، مع قرار بنشر فوضى أوروبية عن طريق اللعبة الأولى لاتحاد الصيارفة... الإقراض...

كان لويس السادس عشر هو أضعف نقطة بدت لهم في أوروبا؛ بسبب ميله الشديد للبذخ، وإسراف زوجته الجميلة ماري أنطوانيت... وفي صفقة بدت له رابحة، قبل لويس السادس عشر قرضًا كبيرًا من

اتحاد الصيارفة، بفائدة اضطرته لضغط الإنفاق القومي، وفرض رسوم وضرائب جديدة، مما أسقط شعبه في لجة من الفقر والجوع والمرض والغضب، استغلها البعض في إشعال نار الثورة التي لم تلبث أن اندلعت كنوبات غضب متفرقة، تجاهلها لويس وقادته في عجرفة، مما زاد الثورة اشتعالًا، حتى تم اقتحام سجن الباستيل المخيف، في يوليو ١٧٨٩م، وتحرير السجناء والمعتقلين، وتم إعلان حقوق الإنسان والمواطن، وبعدها كانت مسيرة النساء إلى قصر فرساي، والتي أجبرت البلاط الملكي على العودة إلى باريس في أكتوبر من العام نفسه، وسادت الفوضى التي أدت إلى إعدام لويس السادس عشر نفسه في يناير ١٧٩٣م...

وارتاح قادة الماسونية واتحاد الصيارفة التابع لهم؛ فقد حققت سياسة الإقراض هدفها، وضغطت على الشعب إلى حد الفوضى العارمة التي لولا ظهور نابليون بونابرت، عقب عهد الإرهاب، والذي قاده ماكسميليان روبيسبيير من ١٧٩٣م إلى ١٧٩٤م، ولولا قوة إنجلترا في ذلك الحين – لسادت الفوضى أوروبا كلها، ولما كانت كما نعرفها اليوم...

وبقيت أمريكا شوكة كبيرة في ظهر الماسونية واتحاد الصيارفة الذي رأى أن سياسة الإقراض والفوضى لن تنجح مع أمريكا بعد نشوة الاستقلال، والأفضل سياسة السيطرة، فما كان من اتحاد الصيارفة إلا أن جمع قوته الاقتصادية مرة أخرى لشراء بنك أوف أمريكا، والسعي لتقوية أنصاره للصعود إلى سدة الحكم...

واندلعت الحرب العالمية الأولى في ٢٨ يوليو ١٩١٤م، كما خطّطت لها الماسونية أن تكون، وكان الهدف منها إسقاط الإمبراطورية العثمانية التي كانت مقرّاً للخلافة الإسلامية حتى ذلك الحين، وسارت الحرب كالمخطط لها، باستثناء أن روسيا كان لها ثقل كبير فيها، دفع اتحاد الصيارفة إلى تكرار لعبة الإقراض معها، كما فعل مع فرنسا من قبل...

قرض كبير أثلج صدر الإمبراطور رومانوف، مع فوائد كبيرة، اضطرته لفرض رسوم وضرائب جديدة مجحفة، استغلها البلاشفة لتأليب الشعب الذي بدأت شرارة الثورة تسري فيه، في الوقت الذي كان فيه لينين في منفاه، وهو صاحب الكاريزما الكبرى، والتأثير الأعظم على الطبقة العمالية في روسيا، فقرّر اتحاد الصيارفة تمويل عملية عرفت باسم «الحصان

الحديدي»؛ لإعادة لينين إلى موسكو ليقود الثورة هناك، مقابل أن يعمل على انسحاب روسيا من الحرب العالمية الأولى إذا ما فاز البلاشفة بالسلطة....

وعاد لينين إلى موسكو، ونجحت الثورة، واعتلى البلاشفة مقعد الحكم، وأوفى هو بالجزء الخاص به من الصفقة، وانسحبت روسيا من الحرب، ولكن الرياح لم تأت بكل ما تشتهي السفن، فعلى الرغم من سقوط الإمبراطورية العثمانية، خسرت ألمانيا أيضاً، وفرض عليها الحلفاء شروطاً مجحفة، مع معاهدة فرساي «٢٨ يونيو ١٩١٩م والمعدلّة في ١٠ يناير ١٩٢٠م»...

وهكذا حققت سياسة قروض اتحاد الصيارفة، مع شروطها المجحفة، نجاحاً آخر كبيراً، جعل التفكير في تحويله إلى منظمة عالمية فكرة قوية تستقر في

الأذهان، وتلقى قبولًا ماسونيًّا على مستوى المحفل الأعظم...

وعلى الرغم من معاهدة فرساي، كانت خطة الماسونية مازالت تعتمد على صعود ألمانيا، وإشعال الحرب العالمية الثانية، ولهذا فقد دفع اتحاد الصيارفة روسيا البلشفية لمد يد المساعدة لألمانيا النازية، والتي استمرت حتى السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية، وحتى وضع هتلر توقيعه على خطة «بارباروسا» أو «ذو اللحية الحمراء»؛ لاحتلال روسيا، حليفة الأمس...

ودون تكرار تفاصيل الحرب العالمية الثانية، فقد انتصر الحلفاء، وسقط الرايخ الثالث، وتم تقسيم ألمانيا، وانهارت النازية، ونشأت الأمم المتحدة، وصار صندوق النقد الدولي حقيقة عالمية تتبع

نفس سياسة الإقراض ذات الشروط المجحفة والمذلّة...

مرة أخرى نكرِّر السؤال: ما علاقة كل هذا بحروب الجيل الرابع؟!...

هناك أكثر من علاقة في الواقع؛ فالاقتصاد جزء شديد الأهمية في حروب الجيل الرابع، والسيطرة الاقتصادية، وسياسة تجويع الشعوب، عبر قروض حكومية بشروط مجحفة تدفع إلى فرض مزيد من الرسوم والضرائب – هي سلاح جبار من أسلحة حروب الجيل الرابع لنشر الغضب في النفوس، ودفع الشعوب للثورة على الأنظمة، وما يستتبع هذا من فوضى وانفلات..

أما العلاقة الأهم فتكمن في الحرب العالمية الثالثة والأخيرة، كما تضمنتها الوثيقة الماسونية الأساسية، والتي ذكرت ضرورة أن تكون بين الإسلام والغرب،

باعتبار أن الإسلام هو العقبة الكبرى أمام صعود ملك اليهود المنتظر إلى سدة الحكم العالمي، ولابد من إزاحته عن الطريق، أو إضعافه إلى الحد الذي يفقد فيه تأثيره العالمي على الأقل...

وليس أفضل في هذا من الإرهاب...

فالإرهاب يضعف الدول الإسلامية، ويبتز مواردها ويخلخل توازنها، والأهم والأخطر هو أنه يوسم الإسلام، في نظر العالم كله، باعتباره دينًا همجيًا دمويًا عنيفًا لا يصلح للتواجد وسط عالم متحضِّر، ولابد من محاربته والقضاء عليه أو تحجيمه؛ حتى لا ينهار العالم الحر معه...

ولقد نجحت الخطة حتى الآن، فالإرهاب صار مرادفًا للإسلام والمسلمين، في نظر كل دول العالم، وصارت الدول الكبرى تتآزر ضده، من خلال مجموعات وتنظيمات متطرِّفة تعيث الوحشية والدموية والعنف

أينما حلّت ووجدت، مما استنفر حتى البلدان الإسلامية نفسها لمواجهتها ومقاومتها...

الاقتصاد هو بالفعل سلاح جبار من أسلحة حروب الجيل الرابع «٤WG»، ولكنه ليس صورة واحدة... بل عدة صور... والحديث مستمر.

* * *

١٤

حتى التزوير...

التزوير جريمة مخلة بالشرف في كل أنحاء العالم بنوعيه المادي والمعنوي، وتنص المادة ٤٥٣ من قانون العقوبات المصري على أن التزوير هو تحريف متعمَّد للحقيقة في البيانات التي تثبتها صك أو مخطوط يشكِّل مستنداً، بدافع إحداث ضرر مادي أو معنوي أو اجتماعي...

ولا أحد يمكنه تحديد متى بدأ تاريخ التزوير والتزييف بالضبط، ولكن هناك مناح تاريخية تشير إلى أن أحد المسئولين عن صك العملة الذهبية، في العصور القديمة، كشف مصادفةً أنه لو أضاف

بعض المعادن والنحاس إلى الذهب المصهور، بكميات معتدلة، فالذهب لن يتغير لونه أو ملمسه، وسيستطيع عندئذ إنتاج كمية العملة المطلوبة منه، واختلاس بعض الذهب في الوقت ذاته، ولعل هذا أساس القصة الشهيرة للعالم أرشميدس «٢٨٧ق م– ٢١٢ ق م» عندما كشف نظرية الإزاحة؛ لتمييز الذهب الأصلي عن الزائف، وصرخته الأشهر في تلك اللحظة «وجدتها... وجدتها»...

وتزوير أو تزييف العملة، هو أخطر أنواع التزييف والتزوير اقتصاديًا، ولكي نفهم السبب، علينا أن نعرف أولًا ما الذي تعنيه العملة التي نتداولها طوال الوقت، في حياتنا اليومية، وما معنى أن تحمل في جيبك ورقة مكتوبًا عليها أنها تساوي خمسة، أو عشرة، أو حتى مائتي جنيه؟

الواقع أن تلك الأوراق «لو قرأت المكتوب عليها جيداً» هي مجرَّد مستندات، أو شهادة تعطيك إياها الحكومة –أية حكومة في أية دولة– وتتعهَّد بموجبها أن تدفع لحاملها ما يساوي المكتوب عليها ذهبًا، وَفْقًا لسعره العالمي وقت الطلب...

وكل دولة لا يمكنها أن تطبع أوراق العملة كما تشاء، وإلا لكانت كل الدول بالغة الثراء، ولكن الواقع أن كل دولة لديها احتياط لعملتها، إما من الذهب، وإما مما تنتجه من خامات لها نفس قيمة الذهب في الاقتصاد العالمي، وإنما تستطيع كل دولة فقط طباعة ما يساوي ما لديها من احتياطي للعملة بالضبط، فكلمة جنيه تتساوى عالميّا مع كلمة دولار، على الرغم من الفارق بين سعريهما،

فمن الناحية الاقتصادية، كل منهما يشير إلى الوحدة الأساسية للعملة في وطنها...

بمعنى أبسط... لو أن الدولة تملك احتياطيّا أو سنداً لعملتها يساوي مليار وحدة أساسية، سواء أكانت ريالًا أم دولارًا أم جنيهًا، فليس لها أن تطبع أكثر من مليار وحدة، مساوية لاحتياطيِّها... في هذه الحالة تصير الوحدة تساوي واحداً صحيحًا اقتصاديّا...

أما لو كانت الدولة، أية دولة، تطبع ضعف احتياطيِّها من العملات، فما سيعنيه هذا هو أن الوحدة الواحدة من عملتها ستساوي عمليّا نصف قيمتها، فالجنيه سيظل جنيهًا، ولكنه لا يستطيع شراء إلا نصف ما كان يستطيعه، لو أن الدولة قد طبعت ما يساوي احتياطيّها دون زيادة...

ولو زادت نسبة ما تطبعه أية دولة عما تملكه من احتياطيِّها، لازداد الانخفاض

في قيمة عملتها، إلى حد أنها قد تصل إلى الانهيار الاقتصادي التام، فلا تعود عملتها تساوي شيئًا في السوق العالمية...

والتزوير والتزييف يصنعان الأمر نفسه، دون أن يكون للدولة شأن في هذا، فالدولة تلتزم بطباعة نقد يساوي الاحتياطي لديها، ولكن المزيفين والمزورين يطرحون العملة الزائفة في الأسواق، ويتم تداولها مع العملة الفعلية بنفس التأثير الذي تحدثه طباعة الدولة نفسها لما يفوق احتياطيها من النقد...

ما صلة هذا إذن بحروب الجيل الرابع؟!...

تزييف وتزوير النقد، هو وسيلة من وسائل حروب الجيل الرابع، ووسيلة بالغة الأهمية والخطورة أيضًا، فطرح كمية كبيرة من العملة المزيفة في دولة ما، يمكن أن يؤدي إلى خلل ميزان مدفوعات

تلك الدولة، وانخفاض قيمة عملتها، وربما إلى الانهيار الاقتصادي لتلك الدولة على المدى الطويل...

وهذا ليس مجرّد افتراض، ولكنه حقيقة تاريخية مخابراتية، قامت بها مخابرات النازية ضد إنجلترا في الحرب العالمية الثانية، كمحاولة لضرب الاقتصاد البريطاني، مما يؤثر في صناعة السلاح لديها، ويدفعها إلى خسارة الحرب مع الوقت...

كانت فكرة جهنمية اقترحها هملر، قائد الجستابو في بدايات الحرب، وراقت كثيراً لأدولف هتلر الذي كانت إنجلترا تقف عقبة كئوداً أمام سيطرته على كامل أوروبا، ولقد اقترح هملر أن يتم تزييف العملة البريطانية على نفس الورق الذي تطبع عليه، وبنفس الأحبار؛ حتى تمتزج بالعملة الأصلية، وتحدث التأثير المدمّر المطلوب...

وكان يمكن أن يؤدي هذا إلى انهيار إنجلترا اقتصاديًّا، في زمن الحرب، لولا مصادفة مدهشة... لقد سقطت بعض الوثائق السرية في يد جاسوس بريطاني رفيع المستوى، نجح في التسلل بين الأوساط العليا في الحزب النازي، وكانت تلك الوثائق تشير إلى بعض العمليات الاستخباراتية النازية في أوروبا، ومن بينها إشارة إلى لعبة العملة المزوَّرة هذه...

ولقد نفذ النازيون خطتهم بالفعل، ولكن المخابرات البريطانية فاجأتهم بتغيير لون أحبار طباعة العملة الإنجليزية قبل طرح العملة المزيفة بيوم واحد...

الإسرائيليون التقطوا هذه الفكرة من التاريخ الاستخباراتي للحرب العالمية الثانية، وحاولوا تنفيذه مع مصر مرتين، مرة قبل نكسة ١٩٦٧م، ومرة قبيل حرب أكتوبر ١٩٧٣م، ومن حسن طالعنا أن

المحاولة قد فشلت في المرتين، وتم إلقاء القبض على كل المتورطين فيهما...

ومن الواضح أن زبانية حروب الجيل الرابع قد التقطوا الفكرة من التاريخ أيضًا، ورأوا فيها خامة مثالية صالحة للتنفيذ، بل قد تصبح سلاحًا قويّا وبالغ الخطورة في حروب الجيل الرابع، والتي تعد الحرب الاقتصادية جزءاً لا يتجزأ منها...

ولكن اللعبة هذه المرة، لا تتم على النحو نفسه الذي يستخدمه الأفراد، أو حتى الذي استخدمه الجستابو في الحرب العالمية الثانية، فطباعة النقد تطوّرت كثيرًا في العقود التي مضت بعد الحرب العالمية الثانية، فأوراق النقد صارت مركبة؛ يدخل البلاستيك في صناعتها، مع الأخشاب الطبيعية، وأساليب الطباعة ثلاثية الأبعاد صارت أدق، والعلامات المائية صارت أكثر إتقانًا وعمقًا...

صحيح أن أية دولة تستطيع تزييف عملة دولة أخرى، بنفس الإمكانات، التي لا يمكن أن تتاح للأفراد، أو حتى للشركات الكبرى، ولكن عملة مزيّفة بهذا الإتقان، سيثبت وجودها حتماً وجود تورّط مباشر لأجهزة مخابرات كبيرة في اللعبة، مما يتعارض مع أسس حروب الجيل الرابع التي تعتمد تماماً على عدم التورّط على نحو صريح، يمكن أن يخضع للمساءلة الدولية...

لهذا وجدت حروب الجيل الرابع حلّاً شيطانيّاً للإشكالية... المزيفون أنفسهم...

فليس من الضروري أن تقوم الدولة التي تشن حرب الجيل الرابع بتزوير النقد مباشرة، ولكن يكفي أن تمد جسور الصلة بينها وبين أشهر المزيفين والمزورين في الدولة المستهدفة عن طريق وسطاء غير مباشرين أيضاً، يعملون على تزويدهم بأنواع ورق متطوّرة، وأجهزة نسخ وطباعة

عالية المستوى، وأحبار من أنواع باهظة، مقاربة كثيراً للأحبار الأصلية، مع تقنيات خادعة للعين البشرية، بحيث توحي بأن الطباعة ثلاثية الأبعاد...

بهذا تصل دولة الحرب إلى هدفها دون أن تتورّط على نحو مباشر، وتضمن طرح كميات كبيرة من العملة النقدية في الأسواق، وتتسبّب في خفض قيمة عملة الدولة المستهدفة، ولو تم كشف التزوير فسيتم إلقاء القبض على مزورين محليين، لا يساوون عندها شيئًا، ولن يتمكن أولئك المزورون من الإرشاد عمن زودهم بأدوات التزييف والتزوير؛ لأن هؤلاء لن يقدموا أنفسهم أبداً بالأسماء والهويات الحقيقية...

وعندما تنخفض قيمة عملة الدولة المستهدفة، تزداد بالتالي نفقات التسليح والمعدات العسكرية والذخائر، مما يجعل

مقاومة الإرهاب أكثر كلفة على نحو يتزايد مع تزايد الانخفاض في قيمة العملة بسبب زيادة العملة الزائفة في الأسواق، ويكون على الدولة المستهدفة أن تشن حرباً جديدة على مزوري ومزيفي العملة، مما يضاعف من الجهد والإنفاق والإجهاد والتشتيت...

حروب الجيل الرابع لم تكتف بالتزوير، ولكن لجأت أيضاً إلى جريمة قانونية أكثر خطورة... المزاج.

* * *

١٥

والمزاج أيضًا...

كانت ليلة من ليالي صيف ما قبل نكسة ١٩٦٧م، غاب فيها القمر، وبدا كل شيء هادئًا في تلك البقعة من شمال سيناء عندما عبرت هليوكوبتر إسرائيلية الحدود المصرية، على ارتفاع منخفض، وعبرت بضعة كيلومترات قليلة قبل أن ترصد ثلاث سيارات رباعية الدفع من طراز تلك الفترة، يقف حولها عدد من الرجال في ملابس مدنية، بدوا وكأنهم في انتظار تلك الهليوكوبتر بالذات....

وفي هدوء، وبعيداً عن نظم الدفاع الجوي التي لم تكن قد تطوّرت في ذلك

الحين، هبطت الهليوكوبتر إلى جوار السيارات الثلاث، وما إن استقرت على الأرض حتى هبط منها ضابطان إسرائيليان يحملان صندوقًا متوسط الحجم...

وعلى الرغم من أن الرجال حول السيارات كانوا من المصريين، وأحدهم على الأقل من ذوي الشأن، فإنهم استقبلوا الإسرائيليين بالترحاب، وبمصافحة ودّ قوية، وحصلوا منهم على الصندوق، ومنحوهم حقيبة ممتلئة بالمال، قبل أن تنصرف الهليوكوبتر، على نفس الارتفاع المنخفض، في حين انطلق الرجال بسيارتهم في الاتجاه العكسي...

لم يكن ذلك الصندوق يحوي أية أسرار عسكرية، بل كان يحتوي على ما هو أهم بالنسبة لركاب السيارات ومن خلفهم...

مخدر الحشيش...

فالإسرائيليون، وقبل حتى ابتكار حروب الجيل الرابع، أدركوا قوة ذلك السلاح في إضعاف المصريين وتفتيت انتمائهم، ولم يكن المال الذي حصلوا عليه، مقابل تلك المخدرات، هو الهدف من بيعها للمصريين، بل على العكس، كانوا يبيعونها لهم بأسعار تقل كثيراً عن ثمنها في ذلك الحين... الأهم أن تنتشر بين الشباب المصري، والأوساط بطرفيها؛ الثري حتى الفقير...

فالمخدرات سلاح جبار في حروب الجيل الرابع؛ إذ إن انتشار تداولها بين فئات المجتمع المختلفة – يدخل المجتمع في حالتين مؤسفتين: الانفصال عن الواقع المحيط بالمرء، وشعور باللامبالاة بما يدور من حوله، حتى ولو كان ما يدور من أشد الأمور خطورة على المجتمع والأمن القومي...

وعلى الرغم من القوانين التي أُصدِرت، عبر السنوات؛ للحد من الاتجار بالمخدرات، والتي رفعت العقوبة في بدايات ثورة ١٩٥٢م إلى الأشغال الشاقة المؤبدة، ثم لم تلبث أن ارتفعت فيما بعد إلى الإعدام، فإن تجارة المخدرات لم تتراجع، بل راحت تتنوَّع وتتغيَّر، وتطوِّر وسائلها مع تطوُّر سبل مواجهتها ومكافحتها، ولم يؤد تغليظ العقوبة إلا إلى ازدياد شراسة تجار المخدرات، وتحوُّلهم إلى عصابات مسلحة؛ تحدث مواجهات شديدة العنف بينها وبين رجال الأمن في كل محاولاته لمقاومتها...

المخدرات في مصر بالذات بلغت حداً مخيفاً؛ إذ لم تعد تعتبر نقيصة على الكل تجنبها، بل صارت وسيلة يثبت بها الشاب أنه مواكب للعصر، ومتناغم مع رفاقه، وازداد بهذا انتشارها بين الأوساط الراقية

والشعبية على حد سواء، وبخاصة مع ارتفاع نسب البطالة، وصعوبة الزواج وضعف الاقتصاد، وكلها عوامل تضغط على نفس الشاب، وتدفعه لمحاولة الهروب من التفكير فيها والعيش بهمومها، عن طريق المخدرات التي تفصله عن واقعه، وتغيِّبه في عالم وهمي افتراضي، يشعر فيه أن كل همومه قد ذابت، ولم يعد لها وجود...

وبالنسبة للأرقام، فقد ذكرت شبكة المعلومات العالمية للمخدرات «GINAD» أنه – بحسب تقرير المخدرات العالمي الذي تصدره الأمم المتحدة سنويّاً عن أوضاع المخدرات في العالم – جاءت مصر في المرتبة الثانية عشرة بين أكثر الدول استخداماً لمخدر الحشيش، وأن حجم الإنفاق على المخدرات في مصر، بلغ ثلاثة مليارات دولار سنويّاً، وهو رقم هائل،

باعتبار أنه يمثّل حوالي ٢.٥ % من الدخل القومي المصري... وعلى الرغم من أن وزارة الصحة المصرية قد أكّدت أن عدد المدمنين في مصر ما بين ٢.٥ إلى ٣ ملايين، فإن الدراسات الحديثة لمركز البحوث الاجتماعية تؤكّد أنه ثمانية ملايين....

الأرقام مخيفة ولكنها تعبير دقيق عن الحال الذي وصلنا إليه بسبب تلك المخدرات، والتي سينكر البعض كونها سلاحًا من أسلحة الجيل الرابع، في حين أنها فعليًّا كذلك، وتجار المخدرات العالميون يتم استغلالهم للعب ذلك الدور دون أن يدركوا هم أنفسهم هذا، فالأمر يتم عبر أجهزة استخباراتية قوية، تسيطر على أولئك التجار الذين ليست لهم أية هوية سياسية، ويقتصر اهتمامهم فقط على أرباح المخدرات

العالية جداّ، وأجهزة الاستخبارات تعمل على محافظتهم على تلك الأرباح عن طريق تنظيم توزيع تلك المخدرات، فتحارب دخولها إلى الدول الصديقة، وتساهم وتساعد في دخولها وانتشارها في الدول المستهدفة عن طريق الوصول إلى التجار الكبار المحليين، وعرض صفقات مغرية عليهم، بتكلفة أقل ومخاطر تهريب محدودة، وهو ما يلقى منهم قبولًا فوريّا، بغض النظر عن الجهة المورِّدة، باعتبار أن تجار المخدرات ليس لهم من وطن أو انتماء سوى للمال والربح و المكسب الوفير...

والهدف في النهاية هو شباب الدول المستهدفة، والذين – ومع مرور الوقت – ينتفي لديهم الإحساس بالانتماء إلى الوطن، مع الانتماء إلى عالم المخدرات، أو على أقل تقدير، يصير من السهل

السيطرة على عقولهم المخدّرة، وإعادة توجيهها إلى حيث يرىد من يستهدفون دولتهم...

وكلما انتشرت المخدرات بأنواعها بين الشباب، وتحوّلت من نقيصة إلى حالة «روشنة» أو «مزاج»، أو «عمل دماغ»، وهي المصطلحات المتداولة بينهم – خرجت من كونها سلاحًا مدمرًا إلى اعتبارها متعة، يحرصون عليها، ويسعون من أجل امتلاكها، وما دامت قد تحوّلت إلى متعة فقد حقّقت هدفها الأساسي في حروب الجيل الرابع...

فالمتعة هي ما يسعى إليه البشر منذ الخليقة، وهي الوسيلة الأمثل للسيطرة عليهم، وتوجيههم إلى حيث تريد، ولهذا فهي وسيلة الشيطان المثلى لجر البشر إلى عالمه، وهي وسيلة كل أجهزة المخابرات منذ الأزل لتجنيد أي عميل؛

سواء أكانت تلك المتعة في مال أم جنس أم مزاج، وربما لهذا اعتمدت عليها الماسونية الرمزية الحديثة لبلوغ غايتها الأسمى، وهي ملك اليهود، مما دفعهم للسيطرة على كل سبل المتعة؛ من مواقع تبث أفلامًا جنسية واضحة، وامتلاك المصارف العالمية، وسعيهم للسيطرة على اقتصاد الدول...

والمخدرات – كسلاح من أسلحة حروب الجيل الرابع – تحقق هدفين أساسيين لتلك الحروب؛ وهما تدمير الشباب، الطاقة الأساسية لكل دولة، بالإضافة إلى استنزاف اقتصاد تلك الدولة، نفسها بنفسها، وشغل أمنها في حروب أخرى داخلية، وهي مكافحة المخدرات، ومطاردة المتاجرين فيها...

الصين واجهت تلك المشكلة لعقود، وأدركت أنها قادرة على هدم كيانها في

ظل حروبها مع الدول ذات النظم الرأسمالية، ولأنها لا تبالي كثيراً بحقوق الإنسان ومنظماته العالمية التي يتم تمويلها خصيصاً لتحجيم دور الدول في مكافحة أسلحة الجيل الرابع، قرَّرت الصين إصدار قانون يقضي ليس بإعدام تجار المخدرات فحسب، ولكن بإعدام المدمنين أيضًا، أيّا كانت هوياتهم، أو الأسر التي ينتمون إليها...

وعلى الرغم من قسوة القانون وعنف تطبيقه – انخفضت نسبة الإدمان فيها لأكثر من سبعين في المائة، ونجحت الخطة، وتحوّلت الصين بعدها بعدة سنوات إلى قوة اقتصادية جبارة...

حروب الجيل الرابع لا ضمير لها ولا رحمة أو شفقة... إنها حروب تسعى لتدمير الدول والشعوب، وفي سبيل هذا الهدف لا تتورَّع عن فعل أي شيء وكل شيء من

أجل الانتصار في الحرب، وأسلحتها كثيرة وعديدة، وكلها مدمِّرة، وتسعى دوماً خلف أهم نقطة في البشر... نقطة الضعف.

* * *

١٦

نقطة الضعف...

لكل بشري في الوجود نقطة ضعف... لأنه بشري... ولأن الضعف سمة بشرية لا يخلو منها بشري واحد، مهما بدا قويّاً منيعاً... وحروب الجيل الرابع تسعى دوماً خلف نقطة الضعف التي قد تبدو لصاحبها وكأنها نقطة قوة، وليس العكس، أو أن حروب الجيل الرابع تجعلها تبدو كذلك من أجل تحقيق مصالحها، والوصول إلى هدفها...

وفي منتصف القرن السادس قبل الميلاد، قال صن تزو –القائد العسكري الصيني الأشهر– مؤلف كتاب فن الحرب،

دستور كل العسكريين منذ ذلك الحين: «عندما تكون لعدوك نقطة ضعف، اعمل على الضغط عليها حتى تشعلها، فيندفع وقد غاب عنه العقل، وانعدمت فيه الحكمة، فيقع، في سهولة، في الفخ الذي أعددته له»...

وكم كان صن تزو حكيمًا وعبقريًّا في قوله هذا؛ فنقطة الضعف هي بالفعل مصدر ضعف عدوِّك، ومنتهى الذكاء أن تصوِّرها له وكأنها نقطة قوة؛ فتضمن تحوُّله إلى قوة غاشمة، وطاقة غير مرشَّدة يمكنك توجيهها إلى حيث تشاء، وأن تحقق بوساطتها أهدافًا تكون في المعتاد ضد عدوك نفسه...

اللعبة يلعبها البعض في تلقائية أحيانًا دون أن تكون لديهم أدنى معرفة بصن تزو وكتابه «**Art of War**»، فالنساء الشعبيات مثلًا – في بعض المناطق في

مصر وإيطاليا وأمريكا الجنوبية – يعايرن أزواجهن أحيانًا بأنهم ليسوا رجالًا عندما يردن منهم القيام بعمل أخرق أو مندفع، وغالبًا ما ينجحن في هذا...

وفي الحروب التصادمية القديمة من حروب الجيل الأوَّل كانت هناك فرقة من الخيالة تقوم باستفزاز فرسان العدو؛ لتدفعهم إلى مطاردتها، بحيث تضع نفسها دون أن تدري، من فرط انفعالها واندفاعها، داخل الفخ الذي تم إعداده لها، والذي يطبق عليها من كل جانب...

ولقد تطوَّر هذا مع حروب الجيل الرابع، والتي اعتمدت على نظرية الضعف لإعادة توجيهها إلى صدر الدولة المستهدفة، ولعل أبرز مثال على هذا هو تلك التيارات المتطرِّفة التي ظهرت منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين، عندما وجد زبانية حروب الجيل الرابع أن الدين هو

نقطة ضعف لدى المتطرفين، وأنك لو أوهمتهم بأن شيئًا ما يتعارض مع الدين، فسيندفعون لمحاربته دون أن يتوقفوا للتعقُّل و التدبّر، والتيقن مما إذا كان معارضًا للدين أم لا...

واستغلال نقطة الضعف، في حروب الجيل الرابع، هو استخدام استراتيجي طويل المدى، قوي التأثير، وهو يعتمد على خطوات بطيئة مؤثرة، وَفْقًا لنظرية يطلق عليها «**Quite But Sure**»...

وأوّل ما استخدمته في هذا المجال هو بث فكرة تعارض الانتماء للوطن مع الدين، فبهذا فصلوا التديُّن عن الوطن، وأقنعوا المتطرفين بعدم الانتماء إلى أوطانهم، أو العمل من أجلها، أو الدفاع عنها، حتى إنهم قد يسعون لهدمها بدلًا من ذلك، باعتبار أن وجودها يتعارض مع دينهم، والذي لا ينبغي لهم الانتماء لسواه...

لهذا تجد أن نشيد جماعة الإخوان مثلًا يحوي كلمات مثل «الإسلام وطني لا وطن سواه»... وشيوخ التطرُّف ينهون عن تحية العَلَم؛ باعتبار أن العَلَمَ رمز الدولة، وكلمة دولة تتعارض مع الدين، على الرغم من أنهم يرفعون أعلامًا أخرى، يرون أنها تعبِّر عن دولة الإسلام، وهي كيان وهمي يرون فيه كل وطن يسعون إليه...

هم إذن يريدون وطنًا، على أن يكون وطنهم هم، وعَلَمًا على أن يكون عَلَمَهم، ولا يرون أي تعارض في فكرهم؛ لأن الذين سيطروا على أفكارهم لعبوا على نقطة ضعفهم، فوجهوهم إلى حيث يريدون، وأقنعوهم بأن الهجوم على أوطانهم هو نقطة قوة، وليس نقطة ضعف...

الهدف هنا هو تحويل تلك الفئة إلى خلايا مختلة تهاجم الجسد الذي تنتمي

إليه، باعتباره جسمًا غريبًا، دون حتى أن يدركوا أن انهيار الجسد يعني انهيار كل أعضائه، حتى الخلايا التي تهاجمه!!...

ولأن اللعب على نقطة الضعف استراتيجي المنهج، فهو ينتظر سنوات وسنوات، في صبر شيطاني، حتى يبلغ هدفه المنشود، وهو دفع بعض المجتمع إلى السعي لتدمير بعضه الآخر، ممن ليست لديهم ميول متطرِّفة، وإقناعهم بأن الهدم التام هو السبيل الأمثل لإعادة البناء على نحو سليم، علمًا بأن الهدم سريع وسهل، ولكن البناء بطيء وصعب، والأهم من هذا وذاك هو أنك بعد أن تهدم وطنك لا بد من أن تجد الوقت لإعادة بنائه، فمن سيمنحك هذا الوقت عندما تهدم الكيان كله؟! خصومك أم أعداؤك؟!...

حروب الجيل الرابع تسعى فقط للهدم، فإذا ما ساهمت أنت في خطتها، وهدمت كيانك، فهم لن يسمحوا لك عندئذ بإعادة البناء، إلا وَفْقَ شروطهم الخاصة، وما يتناسب مع مصالحهم، فإما أن تقبل أو تحيا إلى الآن وسط كيان مهدّم خرب يستحيل العيش فيه...

هذا ما يعرف في علم التنمية الذهنية، الذي شرفت بعض الوقت بتدريسه، باسم إشكالية المنطق، عندما يقوم طرف ما بإدخال معلومات خاطئة إلى ذهنك، تصنع بالتالي منطقًا مختلًا، يبدو لك، عندما تقارنه بالمعلومات المدخلة، وكأنه منطق سليم، على الرغم من أنه ليس كذلك أبدًا...

فلو أنك أدخلت إلى الكمبيوتر معلومة تقول إن مجموع سبعة عشر زائد واحد وعشرين يساوي خمسة فقط، وجعلته

يعتبرها معلومة أساسية، ثم طلبت منه طرح خمسة من سبعة عشر، فسيخبرك أن النتيجة هي واحد وعشرون وهي نتيجة منطقية، نسبة إلى المعلومات التي لديه، ولكنها غير منطقية أبداً بالنسبة لعلم الرياضيات الأساسية، ولكن خلل المعلومات المدخلة لا بد أن يؤدّي حتماً إلى خلل النتائج...

وخلل المنطق ليس أمراً عسيراً، إذا ما قام به خبراء محنكون، درسوا سيكولوجية الشعوب، وعرفوا جيداً نقاط ضعفها، فكل ما عليك هو صياغة بعض الأمور على نحو جذاب، يمكنه إقناع أصحاب الخبرات القليلة والمعلومات الأقل، وغرسه في أذهانهم في عمق بحيث يصير وكأنه حقائق لا تقبل الجدل، واستخدام خبراء في هذا المجال، أو حتى علماء، ينتحلون

صفات تخالف حقيقتهم، وتبث أهدافًا تخالف أهدافهم الفعلية....

نفس تلك الإشكالية المنطقية هي ما تستخدمه حروب الجيل الرابع؛ لإعادة توجيه العقل، وتشكيل الفكر، على نحو يتعارض تمامًا مع المنطق العام، دون أن يدرك من يتعاملون بالمنطق المختل أنهم مخطئون...

وفي إحدى عمليات التجسس الحديثة، عندما سقط جاسوس هام في قبضة المخابرات المصرية، أكَّد في اعترافاته أن الجاسوس المقيم الذي كان ينقل إليه التعليمات، ويمنحه المكافآت والتمويل، كان شخصًا ملتحيًا، يرتدي جلبابًا أبيض قصيرًا وعمامة، في حين أنه يثق تمام الثقة في أنه ليس حتى مسلم الديانة...

وهنا تكتمل أركان لعبة نقطة الضعف، فيكفي لأي جاسوس مقيم، وهو أرقى

أنواع الجواسيس، والمسئول عن التعامل مع أية شبكة جاسوسية– في المكان الذي يقيم فيه – أن يطلق لحيته ويحفظ بعض الآيات القرآنية والأحاديث؛ لينال ثقة الشباب متطرِّف الفكر، ثم يستخدم ما درسه وتدرَّب عليه؛ لإعادة توصيف دلالات الآيات والأحاديث، بحيث تتخذ منحى يخالف حقيقتها، ولأن مظهره وأسلوب حديثه الهادئ المدروس الذي تدرَّب عليه طويلًا – يلمس نقطة الضعف عند أولئك الشباب الذين ربطوا المظهر بالدين، فهو يصنع منهم جنوداً مجندة لهدفه الفعلي، بحيث يستطيع توجيههم إلى حيث يشاء، وهم يتصوَّرون أنهم يقومون بأعمالٍ بطولية، ويقاتلون في سبيل الدين وليس في سبيل ما يسعى إليه هو من نشر الفوضى في المجتمع وتقسيمه إلى فئات متحاربة...

الأهم هو أنك إذا ما شككت في نوايا ذلك الملتحي الزائف وحاولت كشف حقيقته، فسيهاجمك جميع الشباب الذين جندهم في استماتة، وسيقاتلون من أجله، فقط لأنه أقنعهم –بهيئته وحدها– أنه رمز للدين الذي يدينون به ويقاتلون من أجله، وهذا بالضبط ما يجعل نقطة الضعف لديك هي مصدر قوة كبيرة... للعدو...

* * *

١٧

التشكيك والهدم...

على موقع من مواقع شبكة الإنترنت ستجد خريطة لهدم أية دولة، تعتمد في أساسها على هدم أربعة أعمدة رئيسية... الحكومة والجيش والشرطة والقضاء!!...

فهذه الأعمدة الأربعة هي عماد أية دولة، والتي يقام عليها سقف وجودها، وهدم تلك الأعمدة الأربعة يعني هدم الدولة من أساسها، بحيث لا تقوم لها قائمة مرة أخرى... والوسيلة المثلى لهدم تلك الأعمدة الأربعة هي التشكيك في كل شيء وأي شيء، بحيث تبدو تلك الأعمدة فاسدة، مما يدفع شباب تلك الدولة إلى

السعي لهدمها، وهو يتصوَّر أنه بهذا يقضي على الفساد المتغلغل فيها!!...

والشائعات بشقيها، الاستراتيجي أو التكتيكي، هي الوسيلة المثلى للتشكيك، وخاصة مع حسن إطلاقها وبراعة ترويجها، وخبرة القائمين على هذا الترويج... ولا أحد ينسى تلك الشائعات التي تردَّدت في الشارع المصري، عقب سقوط الرئيس الأسبق حسني مبارك، عن امتلاكه لمليارات، بأرقام تتجاوز العائد القومي لمصر في كل سنوات حكمه، والتي ثبت فيما بعد، وعلى الرغم من ترديد الصحف لها، أنها لا أساس لها من الصحة، بغض النظر عن سقوط الرجل وفساد نظامه...

الأكثر سهولة، منذ سنوات، كان التشكيك في نظام الأمن بكل صوره؛ لأنه كانت هناك تجاوزات أمنية بالفعل،

يلمسها المواطن العادي الذي لم يدرك – على الرغم من وجود تلك التجاوزات التي لم تزد، وَفْقًا للإحصائيات الرسمية العالمية على ١٢ % في أقصى تقدير – أن وجود الشرطة هو ما يجعله يغمض عينيه ليلًا، وينام مطمئنّا إلى أن هناك من يحميه ويرعى أمنه، ولعل البعض أدرك هذا جيداً عندما انهار جهاز الشرطة في الثامن والعشرين من يناير ٢٠١١م، فانطلق اللصوص والمجرمون والبلطجية يعيثون في مصر فساداً، إلى الحد الذي دعا شباب ورجال وبعض نساء مصر إلى الخروج للدفاع عن أنفسهم وأموالهم وممتلكاتهم... وأرواحهم أيضًا...

كل هذا حدث بانهيار عمود واحد من أعمدة الدولة، فما بالك بباقي الأعمدة، وماذا كنا سنفعل، لو انهار العمود الأكبر، وهو الجيش الذي لم يسلم من شائعات

عن الفساد والانحراف، ومن محاولات مستميتة لهدمه، أشهرها ذلك الهتاف الذي انتشر بين الشباب في ذلك الحين «يسقط يسقط حكم العسكر»، والذي لم يدرك تسعون في المائة ممن ردّدوه، المعنى الفعلي له، ولا من أطلقه في البداية، ولا لأي هدف أطلقه؟

وتعالوا نحاول أن نتخيَّل معًا ما كان يمكن أن يحدث للدولة لو انهدم ذلك العمود أيضًا، وقد كنا نحمي بيوتنا وأعراضنا وأولادنا في وجوده!!... من كان سيصبح سيفنا أو درعنا في ذلك الوقت، ومن كان سيسيطر على مصر، وينتشر في شوارعها، ويحمل السلاح لإخضاع شعبها، وفرض إرادته عليه، بل تغيير هويته التاريخية إلى أية هوية يشاء؟!...

الشعار ردده آلاف الشباب، وهم يهاجمون الجيش، دون أن يدرك تسعون

في المائة منهم أنهم مسيّرون من قبل آخرين، استغلوا اندفاعهم وانفعالهم من أجل هدم أكبر وأقوى عمود في أية دولة؛ حتى يخلو لهم سبيل ما يسعون إليه...

عمود الحكومة كان قد سقط بالفعل بالثورة، وعمود الشرطة انهار، ويحتاج إلى وقت طويل لينهض من كبوته، ويعيد تنظيم نفسه، وإعادة تسليح رجاله ماديًّا ونفسيًّا ومعنويًّا، ولو سقط عمود الجيش أيضًا، في تلك المرحلة، لسقط عمود القضاء تلقائيًّا، في غياب من يحميه، وسقوط القضاء يعني سقوط العدالة في أية دولة، ويعني بالتالي انطلاق موجة ديكتاتورية يفرضها سلاح أية قوة قادرة على الانتشار....

ولقد تم استخدام كل الوسائل الممكنة لهدم عمود الجيش، منها بث شائعات تتحدّث عن فساد داخل الجيش، وأخرى

عن انقسامات خطيرة داخله، إلى خروج المظاهرات والتظاهرات ضده، إلى محاولة حصار وزارة الدفاع واقتحامها في عملية همجية لم يكتب لها النجاح من حسن طالع هذا الشعب...

وحتى بعد سقوط الشرطة، كانت هناك محاولات مستميتة لمنعها من النهوض مرة أخرى؛ فلو نهضت لانهدمت الخطة الأساسية، ولعاد عمود من أعمدة الدولة يسند سقف وجودها مرة أخرى، مما يتعارض مع فكرة هدمها من الأساس، وتم حصار وزارة الداخلية أكثر من مرة، وتكرّرت محاولات اقتحامها، والتي فشلت أيضًا حتى في أضعف حالات جهاز الشرطة...

أما القضاء فقد بدأت مرحلة التشكيك فيه مبكرًا جدًا، وقبل حتى بَدْء المواجهة الأساسية، وعلى عكس ما يحدث في أية

دولة، صارت أحكام القضاء– أيّاً كانت – عرضة للتشكيك والاتهام بالفساد والتواطؤ والانصياع للدولة، على الرغم من أنها كلها أحكام تخضع لبنود القوانين، التي صدرت على نحو تام الشرعية؛ بالنسبة للقاضي على الأقل...

فالقضاء ليس حرّاً في إصدار الأحكام كما حاول المشككون إقناع الشعب، وإنما هو قضاء مقيَّد بقوانين وإجراءات، يمكن الطعن في تجاوزها، عبر عدة مراحل قضائية، من الاستئناف حتى النقض، كما يمكن رد المحكمة أيضًا لو ثبت انحيازها أو خروجها عن أي مما تنص عليه القوانين...

القانون قد يكون جائرًا، وهذا ليس ذنب القضاء، ولكنه ذنب من أصدروا القانون، وليس على القاضي سوى الالتزام به، حتى لو لم يقتنع بعدالته بصفة شخصية، ولو أنه شعر بهذا، أو شعر الدفاع بأن هذا رأيه،

فعليه -قانونًا- التنحي عن القضية حتى لا يقحم رأيه الشخصي فيما هو معروض أمامه...

ولكن العامة لا يعلمون الكثير عن القضاء وقوانينه ونظمه، وهذا ما يستغله المشككون من جنود حروب الجيل الرابع لبث الشك في القضاء وأحكامه، فلو انهدم عمود القضاء لضاع معه الشعور بالعدالة، وامتلأت نفوس الناس بالغضب والشعور بالظلم، وهو الدافع الأساسي لإشعال فتيل أية ثورة...

وحروب الجيل الرابع، باعتبارها حروبًا هادمة، تسعى لهدم الدول المستهدفة بكل الوسائل الممكنة، دون أن تخاطر بفرد واحد من أفرادها، وتكتفي بالتمويل وتقديم الدعم المعنوي فحسب، عن طريق إعلامها وجمعيات حقوق الإنسان التابعة لها، وتستخدم كل هذا في تأييد

عمليات التشكيك إعلاميًّا، وإصدار بيانات حقوقية، تصم محاولات الدولة لمقاومة هذا بالقمع، مما يوحي بأن المشككين على حق في كل ما يرددونه من شائعات أو أكاذيب...

ولعبة التشكيك والهدم هذه، على الرغم من استراتيجيتها وعمقها، لابد أن تحقّق أهدافها النهائية في وقت قصير، وإلا أفلتت منها اللعبة، فهي قد تستغرق سنوات في زرع الشك في النفوس، فإذا ما حانت لحظة المواجهة فعليها أن تحصد ما زرعته في سرعة، وقبل أن يشعر الناس بالخوف من حالة الانفلات، فيسعون بأنفسهم إلى استعادة أعمدة الدولة خوفًا من تأثير هذا على حياتهم وأمنهم واستقرارهم؛ ففي هذه الحالة تغلب غريزة البقاء حالة الشك، وتنتصر عليها...

ولعل ما حدث في مصر وأنقذ كيانها، بعد أن كادت اللعبة تنجح بمستوى واحد فقط، وخاصة عندما حكم المتشككون، وسعوا صراحة لهدم ما تعسّر عليهم هدمه، في مرحلة الفوضى الأولى – هو الثورة الثانية التي صحّحت مسار الثورة الأولى...

وربما كانت هذه أوّل مرة تفشل فيها حروب الجيل الرابع في استخدام أحد أسلحتها المدمّرة؛ بسبب التعجُّل الشديد في الوصول للهدف، والذي أدى إلى نتيجة عكسية لم تكن متوقَّعة...

ولكن حروب الجيل الرابع ليس لديها مكان لليأس أو الإحباط؛ لأنها تعتمد على مستويات أساسية، تنبع من الطبيعة البشرية ذاتها، فإذا ما خسرت جولة فستواصل البحث عن جولات جديدة... ومبتكرة.

* * *

١٨

الجائزة الكبرى...

حروب الجيل الرابع تعتمد –أكثر ما تعتمد– على نزعات النفس البشرية، وسعيها للتفوّق أو التفرّد، من خلال اللهاث خلف متع الحياة، من مال أو جنس أو سلطة ونفوذ، أو من تطرّف وتزمّت يسعى أيضًا للهدف نفسه، ولكن من اتجاه مختلف...

وكل من الطرفين يمكن استقطابه وجذبه عبر التلويح له بما يسعى إليه، أو عبر منحه لمحة مما يسعى إليه، وهذا ما أدركته الجماعات المتطرِّفة منذ نشأتها، أو ما تم تنبيهها إليه، ممن أنشأها، فسعت

في كل حي إلى المهمشين، ومن ليست لديهم أية أهمية في محيطهم، ومنحتهم ألقابًا أشعرتهم بأهميتهم، مثل مسئول الحي، أو أمير التنظيم أو غيرهما، حيث منحه اللقب شعورًا بالأهمية، بعد أن عاش أعوامًا من الضياع واللاقيمة، مما جعله يقاتل بكل قوته حتى يحتفظ بذلك اللقب، وينتمي بالطبع للجهة التي منحته إياه، وهكذا يصير من شديدي الإخلاص للجماعة التي منحته ما عاش يحلم به ويتوق إليه، منذ وعت عيناه الدنيا...

ولو أن المناصب لا تعني إليه شيئًا، فهم يسعون لحل مشكلاته المادية أو الاجتماعية، فلو كان مدينًا سددوا ديونه، أو كان عاطلًا وفروا له عملًا، حتى ولو كان وضيعًا، فيجلس على النواصي أو في الطرقات، وأمامه كومة من العطور التي

يطلقون عليها اسم العطور الإسلامية، دون أن يكون للإسلام، لا في نصوصه أو معانيه أية صلة بها، أو يبيع المصاحف أو الكتب الدينية، أو حتى السبح والطواقي... المهم أنه عمل... أما الزواج فهم يزوِّجونه من واحدة منهم، يقنعونها بأنها ستنال ثوابًا كبيرًا لو فعلت، وأيضًا دون سند من دين على نحو صريح، وسيقنعونه وهي بالعيش في كوخ، وتناول أية وجبات، المهم أن يشبع كل منهما احتياجاته الجنسية تحت ستار من الدين...

كل هذا يجعل الشاب المهمَّش يرتمي في أحضان الجماعة التي رعته، ويفعل كل ما تأمره به حتى لو كان السرقة والسلب والتعذيب، بل القتل... وهذا ما التقطته خطط حروب الجيل الرابع، وما دفع مخابرات بعض الدول الكبرى إلى إنشاء

برنامج شيطاني حمل اسم «الجائزة الكبرى»...

البرنامج يعتمد على الاحتفاء بكل من يقوم بعمل، يساهم في حروب الجيل الرابع في الدولة المستهدفة، سواء على نحو مباشر، أو غير مباشر، وسواء أدرك أنه يفعل هذا أو لم يدرك... المهم أن يثاب على ما يفعله، على نحو علني ومتألق يقنع الآخرين بالسير في الطريق نفسه طمعًا في نيل الجائزة ذاتها، أو ما يفوقها...

والجائزة الكبرى دومًا جائزة مادية، ولكنها أبدًا لا تمنح على نحو مباشر صريح، وإنما تنهال العروض على كل شخص يساعد أداؤه على تحقيق النتائج المنشودة من حروب الجيل الرابع «4GW» لكي يلقي المحاضرات، أو يكتب المقالات في دول أخرى، وأحيانًا في صحف كبرى

شهيرة في أوروبا وأمريكا، بمقابل مادي كبير ومغرٍ، أو الحصول على جائزة من الجوائز المسيّسة، مثل جائزة حقوق الإنسان أو النضال أو غيرها، والتي تتضمّن دومًا مبلغًا ماليًّا كبيرًا...

هذا الفعل بمثابة فتنة مالية في صورة اهتمام إعلامي وعالمي، يشعر أي شخص أنه قد صار متفردًا ومتميزًا، وأنه ينال الكثير لقاء ما يفعله، ويأخذه الغرور فيتصوّر أنه يربح هذا بجهده وعبقريته، فيتمادى فيما يفعل، وربما يبالغ فيه أيضًا، ويسعى في استماتة إلى ضم المزيد من الناس إليه، بعد أن قنع بأنه قائد، ولابد لكل قائد من أتباع، وهم يتكوّنون على نحو تلقائي؛ انبهارًا بما وصل إليه هو، من اهتمام عالمي ينعكس بطبيعة الحال على الاهتمام المحلي...

وبرنامج الجائزة الكبرى هذا لا يبالي بكبار السن، ولا بمن أفنوا حياتهم في سبيل الحق والعدل والحرية؛ لأن هؤلاء لا يفيدونه في إحداث الإبهار المطلوب، ولا الجذب المنشود؛ فالناس تعتبر أن حصول سياسي كبير، أو ناشط شيخ على جائزة، هو أمر طبيعي وتتويج لكفاح عمره، أما عندما يحصل شاب على تلك الجائزة فهذا يبهر باقي الشباب، ويصنع من ذلك الشاب مثلًا يحتذى به، يسعى الكل لتقليده والسير على خطاه؛ لعلهم يفوزون يومًا بما فاز به...

وليس لديَّ من شك في أن الكثيرين سيعترضون على هذا الجزء من الدراسة، وعلى وصف تلك الجوائز بأنها مسيَّسة، وكل ما أطلبه منهم هو أن يسألوا أنفسهم: لماذا لم يحصل معادٍ واحد للسامية على أية جائزة من تلك الجوائز،

في حين حصل بعض من أعدّ دراسة هاجم فيها الإسلام أو سخر منه، على تلك الجوائز؟!... أهي مصادفة تتم عبر السنين، أم أنها شيء بخلاف هذا؟!..

برنامج الجائزة الكبرى الذي تم اعتماده كجزء من برنامج حروب الجيل الرابع – وضع في الاعتبار تلك الفئات التي لا تبالي بالمكافآت والجوائز العلنية، أو أنها تخشاها؛ لأنها تجذب العيون إليها، ولهذا فقد اعتمدت أجهزة الاستخبارات العالمية نظامًا يُدْعَى «المكافأة الخفية»، والذي يعتمد فقط على جانبي الجنس والمال، كمكافأة كبرى لمن يعمل لحسابهم، سواء مباشرة، أو حتى دون أن يدرك هذا، فعندما يقوم بعمل يتفق ومنهج حروب الجيل الرابع، يمكن مكافأته بحسناء شقراء فاتنة القوام، تناسب ذوقه الذي تتم دراسته مسبقًا، بحيث ترضى عنه

الجائزة وتمتعه إذا ما قام بعمل يرضيها، أو تمنع نفسها عنه لو لم يرضها ما يفعله، وما يرضيها دومًا بالتأكيد، هو ما يناسب الهدف الأسمى لحروب الجيل الرابع...

أما المال، كمكافأة خفية، فهو يقدَّم على نحو مباشر، بنظام الجزرة والعصا، ويتم التعامل به مع الشخصيات ذات التأثير الاجتماعي والسياسي الكبير، وعلى نحو أشبه بتجارة الممنوعات، بحيث يوعد الشخص، سواء أكان سياسيّا أم إعلاميّا، أو أحد رواد الصحافة والفكر، بالجائزة المالية الكبرى، والتي قد تصل إلى ما يفوق عشرة ملايين دولار أمريكي، ولكنه لا يحصل عليها، إلا لو تحقَّق الهدف الأساسي، وهو انهيار الدولة ودمار النظام، ولكنه يحصل على دفعات مغرية منها، كلما خطا خطوة في هذا الطريق، وتمنع

عنه تلك الدفعات إن تقاعس أو تكاسل أو تباطأ لسبب ما، بحيث يسيل لعابه طوال الوقت على الجائزة الكبرى، ويقاتل طوال الوقت في استماتة لبلوغ الهدف الأكبر وهو الانهيار الذي يجلب إليه الجائزة الكبرى، والتي تتضمّن غالبًا منحه جنسية دولة أخرى لحمايته من انهيار دولته الذي كان أحد أسبابه...

وأولئك الذين يطمعون في الجائزة المالية الكبرى – يختلفون تمامًا عمن يحصلون على الجوائز والعقود الإعلامية؛ لأن الفئة الأخيرة لا تدرك أنها ضمن خطة مدروسة، وإنما تتصرّف بدافع من نزعاتها الإنسانية، متصوّرة أن ما يصيبها هو من نتاج عملها وجهدها وكفاءتها، أما الفئة الأولى فهي تدرك جيداً ما تفعله، وأنها تعمل ضد وطنها، مثل أي جاسوس،

ولكنها لا تستطيع مقاومة إغراء المادة، وفكرة الفوز بالجائزة الكبرى...

النتيجة في الحالتين هي «من معنا يربح، ومن ليس معنا يخسر»، وهي الرسالة التي تسعى حروب الجيل الرابع لتوصيلها إلى كل شباب الدولة المستهدفة، على الرغم من أنها، في الوقت ذاته، ولتغطية هدفها الأساسي، تدفع أولئك الشباب إلى أغرب فعل يمكنك تصوّره وهو مهاجمتها...

لهذا ترى الشباب الذين يحلمون بالجائزة الكبرى التي نالها أفراد قلائل منهم، هم أنفسهم الذين يخرجون في مظاهرات مناهضة للغرب، ولاعنة أمريكا دون أن يدرك العديدون منهم، وهم يطالبون بمقاطعة البضائع الأمريكية، أنهم إنما ينفذون المطلوب منهم، من أجل صالح أمريكا، دون أن يدروا... فهكذا الحروب،

تماماً كرقعة شطرنج، تضحّي عليها بقطعة هامة من قطعك؛ لتظفر بالملك في المقابل...

اللعبة أكثر صعوبة وتعقيداً مما قد يتصوّر البعض، فهي رقعة شطرنج، تتقاتل عليها أقوى أجهزة المخابرات العالمية التي تبتكر في كل يوم حركات جديدة، وأمامها كلها المخابرات المحلية التي عليها كشف كل الحركات الجديدة، وابتكار حركات ناجحة مضادة لها...

الأسوأ أن يكون شباب الدولة المستهدفة من المشجعين للمخابرات العالمية وليس العكس... اللعبة حقّاً صعبة... للغاية.

* * *

١٩

أين نحن؟!...

السؤال الذي سيجول في الأذهان بعد كل هذه الدراسة لحروب الجيل الرابع «٤GW» هو: أين نحن من كل هذا، مصريّاً وعربيّاً؟!... وعلينا في الواقع أن نفتح أذهاننا، ونتخلى عن أي تحيُّز أو آراء مسبقة، لنتبع المنهج العلمي في التفكير والدراسة...

والمنهج العلمي في كل الأحوال هو منهج يسعى للبحث عن الحقيقة أيّاً كانت؛ ولهذا فهو منهج مجرَّد لا يمكن السير فيه لو أن الباحث لديه آراء مسبقة، يسبق بها نتائج البحث قبل أن تسفر عن

نفسها فعليّاً، وهناك مقولة شهيرة تصف المنهج العلمي في التفكير والبحث بالآتي: «لو أنك دخلت معملًا لتثبت فشل تجربة ما، فأنت باحث فاشل، ولو أنك دخلت المعمل لتثبت نجاح نفس التجربة، فأنت أيضًا باحث فاشل، فالمفترض أن تدخل المعمل دون هدف مسبق، سوى الوصول إلى الحقيقة المجرَّدة، وترك النتائج وحدها تثبت ما إذا كانت التجربة ناجحة أم فاشلة»....

معنى هذا إذن أننا لو بدأنا البحث بمفاهيم محفورة داخلنا –أيّا كانت– فهذا ليس منهجًا علميّاً، والنتائج ستكون مشكوكًا فيها، أيّا كانت أيضًا، ولهذا سنبدأ بحثنا من معلومات ثابتة، وليس من منطق أو انفعالات...

فعقب حرب الخليج الأولى، عام ١٩٩١م، نشر الأمريكيون خريطة للعالم العربي

بعد تقسيمه إلى دويلات صغيرة، معلنين بهذا عن هدفهم طويل المدى، لإضعاف العالم العربي، وتحجيم قوته، واستنزافه من خلال نزاعات وحروب داخلية منهكة...

وفي عام ٢٠٠٥م، وفي حديث لها منشور في الواشنطن بوست، أعلنت كونداليزا رايس صراحة وفي وضوح، أن أمريكا لديها خطة لنشر الفوضى التي وصفتها بالفوضى الخلّاقة في العالم العربي؛ بحيث يعاد تشكيله وَفْقًا لما يتفق مع المصالح الأمريكية...

وخلال تلك الفترة اتصلت أمريكا، علانية وسرًّا، بكل التنظيمات الإسلامية المتطرِّفة، في العالم العربي، وأمدتها بالمال والسلاح والدعم التقني والعسكري، واستخدمت كل الضغوط السياسية والاقتصادية، لإجبار بعض الدول على التساهل مع تلك التنظيمات

المتطرِّفة، ومنحها حق الممارسة السياسية العلنية، تمهيداً لوجودها المباشر والآمن في المجتمع...

وفي ١٧ ديسمبر ٢٠١٠م، وتضامنًا مع الشاب محمد البوعزيزي الذي أشعل النار في جسده؛ احتجاجًا على سوء معاملة الشرطة له، اشتعلت الثورة التونسية معلنة بدء سلسلة من الثورات التي وصفت باعتبارها الربيع العربي، ولقد جاء الوصف من الإعلام الأمريكي في البداية، ليصير بعدها عبارة متداولة عربيّا، دون أن يدرك أحد كيف نشأ المصطلح، ولماذا انطلق!!... والواقع أنه مصطلح مدروس نفسيّا، ويحتوي على ما نطلق عليه اسم «**Subliminal Message**»، أو الرسالة اللاشعورية، فمجرّد وصف ما يحدث بالربيع دفع الكل لتأييده بكل انفعاله، وبدون دراسة واحدة من عقله الذي ألجمه

المصطلح، وحدّ من تفكيره، على الرغم من أن التيارات الإسلامية كانت جاهزة ومستعدة لتلك الثورات، حتى إن أفرادها كانوا أوّل من حمل السلاح، وسعى للسيطرة على ليبيا وسوريا والعراق واليمن... وحتى على مصر...

ولقد نجح الأمر في العراق وسوريا، بسبب المشكلات الطائفية فيهما، والتي تشتعل منذ عقود، والتي كانت وقوداً مثاليّا للحرب الأهلية، وللصراع الداخلي الذي يهدّد بتقسيم الدولتين بالفعل، وفي ليبيا نجح هذا لأنها من الأساس قبلية، تتصارع فيها القبائل والطوائف مع بعضها البعض، وهذا نفس ما يحدث في اليمن، لتشابه التركيبة القبلية في الدولتين، وفشل الأمر في مصر؛ لأنها على اختلاف طوائفها، ليست بها مشكلات طائفية حقيقية أومتأصلة، ولم تبن على

نظام القبائل التي قد تتصارع مع بعضها البعض....

والآن يسعى تنظيم داعش إلى تقسيم العراق إلى ثلاثة قطاعات؛ قطاع سني، وقطاع شيعي، وثالث كردي، وتقسيم سوريا إلى قطاع دمشق وقطاع حلب، أما ليبيا فتنظيم داعش يسعى للسيطرة على شرقها، وتقاسم الأرض مع غربها، وفي اليمن سعى الحوثيون للسيطرة على كامل اليمن، ثم سرعان ما نزعوا إلى فكرة العودة إلى التقسيم القديم قبل الوحدة، والسيطرة على ما كان يعرف قديمًا باليمن الجنوبية...

مصر وحدها بقيت صامدة ومتماسكة، ووقفت في وجه خطة التقسيم الأمريكية، وقامت بثورة ثانية على نظام الإخوان الذي ما إن صعد إلى سدة الحكم حتى سعى لتنفيذ دوره في المخطَّط الأمريكي،

وطمس هوية مصر، والسعي إلى تقسيمها إلى ثلاث قطع أو قطاعات؛ قطاع شمالي من الإسكندرية إلى أسيوط، وقطاع جنوبي من أسيوط إلى حدود حلايب، مع تسليم حلايب وشلاتين إلى السودان، وقطاع ثالث يشمل سيناء شمالها وجنوبها، مع التنازل عن جزء منها للفلسطينيين؛ ليصير وطنًا لهم، مع التنازل عن جزء آخر لإسرائيل لحماية وجود تلك الدولة الفلسطينية على حساب الأراضي المصرية...

وهذا ليس رأيًا شخصيًّا أو استنتاجيًّا، وإنما هو خلاصة ما أشارت إليه هيلاري كلينتون في مذكراتها، والتي نشرت حديثًا، والتي ذكرت فيها أن هذا ما كان من المزمع إعلانه، في الخامس من يوليو ٢٠١٣م، لولا اندلاع ثورة الثلاثين من يونيو، وتدخُّل الجيش لحساب الشعب، في

الثالث من يوليو، وسقوط حكم تنظيم الإخوان...

كان هذا ضربة قاصمة لكل ما خططته أمريكا بالنسبة لمصر، وضربة أشد عنفاً لما أنفقت عليه إداراتها المختلفة مليارات ومليارات بكل سخاء...

وهنا كان على أمريكا القيام بأحد عملين... إما عمل عسكري مباشر، وإما اللجوء إلى حروب الجيل الرابع بكل مكرها ووحشيتها غير المباشرة... ولأن الصين وروسيا كانتا تعارضان هذا العمل العسكري بشدة، ولأن الجيش يحظى بتأييد وثقة الغالبية العظمى من الشعب، لم يكن هناك بديل عن حرب الجيل الرابع...

وتعالوا من هنا نطبق ما شرحه البروفيسير ماكس مايوراينك، في معهد الأمن القومي الإسرائيلي، من قواعد

وأسس حروب الجيل الرابع... فالأساس هو الإرهاب، وهو أمر لا نحتاج إلى الحديث عنه؛ لأن أخباره تملأ صفحات الصحف في كل يوم، وتعلن عن وجوده على أرضنا، والقاعدة الثانية هي: إيجاد قاعدة إرهابية غير وطنية ومتعدِّدة الجنسيات، وهذا يبدو واضحًا في سيناء التي جلب إليها تنظيم أنصار بيت المقدس – والذي ضل طريقه إلى بيت المقدس – مقاتلين من عدة جنسيات على أمل السيطرة على سيناء... القاعدة الثالثة هي: حرب نفسية متطوِّرة للغاية من خلال الإعلام والتلاعب النفسي، ولقد خبرنا هذا بأنفسنا مع الحرب الإعلامية الوحشية الشرسة التي شنتها علينا قناة الجزيرة وبعض الأبواق الإعلامية الغربية عقب نجاح ثورة يونيو ٢٠١٣م من وصفها بالانقلاب، والسعي لتأليب الرأي العام العالمي ضدها، في

محاولة للضغط على أعصاب الشعب المصري، وتدمير حالته النفسية والمعنوية... القاعدة الرابعة هي استخدام كل الضغوط المتاحة؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية... عودوا معي بذاكرتكم إلى ما فعلوه معنا من مقاطعات اقتصادية، وإيقاف للمعونة الاقتصادية، ومنع المعونة العسكرية، وتقارير حقوق الإنسان المسيئة، وكل الضغوط التي مورست علينا طوال ما يقرب من عام كامل، والتي كان يمكن أن تؤتي ثمارها، لولا أن حدث التقارب الصيني الروسي الذي تصدى لكل هذا، ولولا الدعم السياسي والمادي من الدول العربية الصديقة، الذي ساعدنا على تجاوز تلك المحنة الرهيبة...

القاعدة الأخيرة التي حددها البروفيسير ماكس مايوراينك في محاضرته، هي

استخدام تكتيكات حرب العصابات والتمرُّد، وهذا ما تابعناه جميعًا عقب سقوط نظام حكم الإخوان، وما أعقبه من تمرُّدات وصراعات واعتصامات، ومواجهات مسلحة في بعض الحالات...

ليس هناك من شك إذن في أننا كنا ومازلنا، منذ الثالث من يوليو ٢٠١٣م، هدفًا لجولة جديدة من حروب الجيل الرابع، بعد أن حققت الجولة الأولى، وهي حالة الفوضى، ربع هدفها، وفشلت في تحقيق الباقي، واضطرت للجوء إلى القاعدة الشعبية، وإلى نظام الإخوان الذين فشلوا في تنفيذ الجزء الخاص بهم من الصفقة، فأفسدوا المخطَّط الأساسي كله، واضطروا زبانية حروب الجيل الرابع إلى مواجهة جديدة... وشرسة.

* * *



الخلاصة...

خلاصة كل ما سبق في هذه الدراسة هي أن حروب الجيل الرابع ما هي إلا دروس شيطانية مستقاة من التاريخ، ومن كل الحروب السابقة، من أيام الرومان وحتى حرب العراق، وزبانيتها من الدارسين الجيدين للتاريخ، والمستفيدين الممتازين من دروسه وعبره...

درسوا الوثيقة الماسونية التي تم العثور عليها مصادفة في منتصف القرن السابع عشر، أو أنهم جزء من الماسونية الرمزية الحديثة التي يرفض البعض الاعتراف بوجودها على الرغم من محافلها العلنية

في أوروبا وأمريكا، وراجعوا كل ما حدث وأدّى إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية، والحضارة المصرية القديمة، وحتى صعود الإسلام في العام الأوّل الهجري، وسقوط مملكة الأندلس في قبضة القشتاليين بقيادة فرناندو وإيزابيلا، عام ١٤٩٢م، مع سقوط مملكة غرناطة...

لم يهمهم أبدًا كيف فتح المسلمون الأندلس وجعلوها عربية لأكثر من سبعة قرون «٧١١ – ١٤٩٢م»، ولكنهم اهتموا كثيرًا بأسباب سقوطها؛ لأن حروب الجيل الرابع هي دومًا حروب هدم لا بناء...

درسوا الثورة الفرنسية «١٧٨٩ – ١٧٩٩م»، كيف اندلعت، ولماذا نجحت، وماذا فعلت بها الفوضى، وكيف فشلت في أهدافها الأساسية بسبب الأطماع الشخصية، فانتهى بها الأمر من إسقاط الملكية وإعلان الجمهورية إلى تتويج نابليون

بونابرت نفسه إمبراطورًا في الثاني من ديسمبر ١٨٠٤م؛ ليستبدل بالملكية إمبراطورية وراثية أكثر ديكتاتورية وسوءًا...

درسوا الثورة البلشيفية «١٩١٧م»، التي ربحها البلاشفة بالخداع والغش والكذب والتلفيق، ورأوا كيف أمكنهم خداع الليبراليين؛ ليتظاهروا من أجل الحرية والعدالة والديمقراطية، ثم سلبوهم كل هذا عندما صعدوا إلى السلطة فقهروا الحرية، وأضاعوا العدالة، وسحقوا الديمقراطية، وأعلنوها ديكتاتورية وحشية دموية صارت أمثولة في القهر والجبروت...

درسوا تاريخ الحرب العالمية الأولى «١٩١٤–١٩١٨م»، بكل خطواتها ومواجهاتها وانتصاراتها وهزائمها، ودرسوا الحرب العالمية الثانية «١٩٣٩–١٩٤٥م»، بكل وأدق

تفاصيلها، وبالذات عند الجانب الألماني النازي الذي كشفوا كل أو معظم أسراره مع سقوط الرايخ الثالث...

درسوا حتى المواجهات العربية الإسرائيلية، في ١٩٤٨م، ١٩٥٦م، ١٩٦٧م، ١٩٧٣م، واستخلصوا كل النتائج... درسوا... ودرسوا... ودرسوا، ثم جلسوا يضعون أسس حروب الجيل الرابع «٤GW» القادرة على الاستفادة من كل دروس التاريخ، وحتى من الشيطان نفسه؛ لتحقيق انتصارات كبيرة بأقل خسائر ممكنة.. وعبارة أنهم درسوا تاريخ الشيطان نفسه ليست مجازية، ولا هي صوفية روحانية من كاتب هذه السطور، وإنما هي دراسة جادة حقيقية قاموا بها وإن لم تتحدَّث عن الشيطان الذي لا يؤمنون بوجوده، وإنما عن الشر الذي يمكنه التسلُّل إلى أكثر القلوب طهارة ونقاءً عن طريق التخفي

والخداع؛ لتحويل مسارها نحو أفعال غاية في الشر وهي تتصوَّر أنها من جند الخير المخلصين...

هذه النقطة بالذات استغرقت الكثير من اهتمامهم؛ لأنها الأساس الذي سيبنون عليه حروب الجيل الرابع كلها؛ فالشيطان لا يأتي أبدًا في صورة مخيفة أو مفزعة كما نراه في أفلام الرعب الغربية والعربية أحيانًا، بل هو دومًا جميل المظهر، أنيق الملبس، حلو الكلام، قوي المنطق، وإلا ما نجح في أن يزيِّن للناس أفعالهم، ويجمِّل لهم شرورهم، ويجذبهم إليه في رفق وخبث ودهاء...

كان هذا بالتحديد ما يطمحون إليه ويحلمون ببلوغه... أن يزينوا للشباب كل شر، ويضعوه في صورة خير وعدل وحرية وديمقراطية، بحيث يندفع خلف تلك العبارات المزيّنة، فيهدم باندفاعه الكيان

الذي يتصوَّر أنه يسعى لحمايته بكل وطنيته!!...

هذا الحديث لن يروق للكثير من الشباب، وسيقاومونه ويرفضونه في شدة؛ لأنه يضرب ما يؤمنون به في الصميم، ولكنها دراسة علمية، والعلم الخالص لا يعرف المجاملة أو الملاينة أو إخفاء الحقائق، خوفًا من ردود فعل الآخرين، أو اندفاعهم وانفعالهم، وإنما يسعى للحقائق فحسب دون أن يرغم أحداً على قبولها أو رفضها...

أساليب الشيطان هي بالفعل القاعدة الأساسية التي ترتكز عليها حروب الجيل الرابع، والتي أثبتت فاعليتها عبر عدة قرون؛ فبها تم عكس الصورة في ذهن الجماعات الدينية المتطرِّفة، فحملت السلاح لإكراه الناس على الدين، ولم تتبع حتى الأمر الصريح في القرآن الكريم

بالدعوة إلى سبيل رب البلاد والعباد بالحكمة والموعظة الحسنة، وبألا يكرهوا الناس حتى يكونوا مؤمنين، وبها تم جذب مئات الشباب للثورة والسعي إلى الفوضى الشاملة تحت شعارات الحرية والديمقراطية والعدالة... وبأساليب الشيطان جعلوا من يتصوَّرون أنهم أكثر الناس تدينًا أشبه بعصابات وحشية بلا رحمة، تعذِّب وتقتل وتذبح وتحرق، دون أن يطرف لها جفن، على الرغم من التعارض الشديد بين الوحشية ودين الرحمة... ولكن الشيطان يزيّن، ويغشي الأبصار، ويعمي العيون، ويغيِّب العقول... ويربح دومًا...

سبل الشيطان هي التي أنشأت الإرهاب من رحم من يركعون ويسجدون للّه سبحانه وتعالى، وهي التي دفعت شبابًا إلى إعداد وتفجير القنابل في المنشآت

والبشر، عسكريين كانوا أم مدنيين... سبل الشيطان هي التي انتصرت على العقول وغلبت الحكمة ولعبت بالمشاعر، فكيف مع كل هذا لا يجد فيها زبانية حروب الجيل الرابع مادة دسمة للغاية، للدراسة والفحص واستخلاص النتائج؟!

اختصاراً لكل هذا، ولكل الدراسة السابقة، علينا أن نؤمن بحقيقة أساسية لا جدال فيها... أننا نخوض حربًا، بلا دبابات، أو طائرات، أو حتى جنود مشاة في المواجهة... هذا لأنها حرب الجيل الرابع التي تعتمد على دفعنا ليدمِّر بعضنا البعض، وكل منا يتصوَّر أنه يحمي الكيان الذي يهدمه... إنها حرب شديدة الخطورة والقسوة، قنعت بهذا أم لم تقنع، علماً بأن أهم قواعد حروب الجيل الرابع المعلنة، هي أن تدفعك لاستنكار وجودها؛ هذا لأنك لو أنكرت وجودها فستمضي في

عملية الهدم مدفوعًا بشعارات صحيحة في منطوقها، وخادعة في الهدف الفعلي منها... وعلى الرغم من أن حروب الجيل الرابع ليست حروبًا سرية، بل معلنة وموثّقة، ويمكن الرجوع إلى كل تفاصيلها على المواقع المدنية والعسكرية، عبر شبكة الإنترنت، وفي محاضرة البروفيسير ماكس مايوراينك المنشورة أيضًا على شبكة الإنترنت، ومقارنة الأسس التي وضعها لها، بما يحدث على أرضنا، من قبل حتى ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م – فإنك ستجد الكثيرىن ممن يرفضونها، ويرفضون الاعتراف بوجودها، إما لأن عقولهم تعجز عن استيعاب شيطانيتها، وإما لأنها ترفض التفكير في أنها مخدوعة، وإما أنه العناد الذي يدفع البعض إلى عدم التراجع عما آمن به يومًا، حتى ولو تيقّن تمام اليقين أنه كان مخطئًا!!...

هنا نصل إلى نهاية هذه الدراسة التي يمكن وصفها بأنها دراسة موجزة للغاية لحروب الجيل الرابع، وأسبابها، وأسسها، وقواعدها، والنظم المختلفة التي تتبعها، فكل فصل مما سبق يمكن أن يصبح موضوعًا لدراسة منفردة كاملة؛ بدليل أن هناك كتبًا ومراجعَ لكل معلومة وردت في هذه الدراسة...

الدراسة التي أفادت من كل شيء... من كتاب فن الحرب لصن تزو، الذي وضعه في القرن السادس قبل الميلاد، وحتى ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣م، وما أعقبها من أحداث وتداعيات وتطوّرات لم تنته، ولم تضع أوزارها بعد حتى لحظة كتابة هذه السطور...

دراسة تحمل اسم أحدث وأخطر وأشرس وأشر الحروب التي عرفها التاريخ حتى الآن...

حروب الجيل الرابع...

وليس الأخير.

* * *

